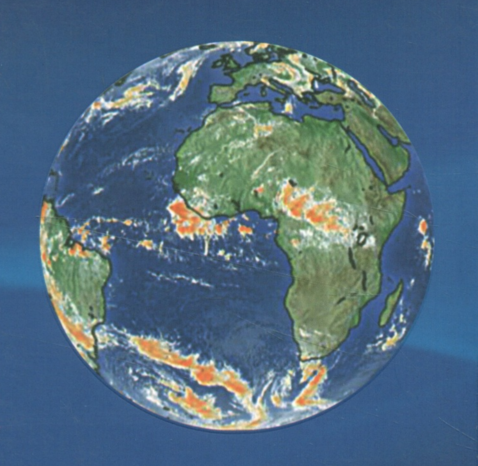
عالمية الإسلام وقضايا العصر

محمد علوه





WORLD ISLAMIC CALL SOCIETY
Association Mondiale de L'Appel Islamique

عالمية الإسلام
وقضايا العصر

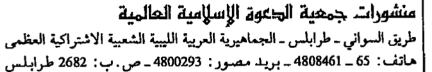
محمد علوه

عالمية الإسلام وقضايا العصر



عالمية الإسلام وقضايا العصر

محمد علوه


منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

طريق السواني ـ طرابلس ـ الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

هاتف: 65 ـ 4808461 ـ بريد مصور: 4800293 ـ ص.ب: 2682 طرابلس



Website: www.islamic-call.net

E-mail: media@islamic-call.net

الطبعة الثالثة: 1378 من وفاة الرسول ﷺ (2010) مسيحي

الرقم المحلي: 467/ 2009 دار الكتب الوطنية ـ بنغازي

الرقم الدولي: ردمك ISBN:978 - 9959 - 28 - 251 - 4


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى كل من رعانا صغاراً ونحن ندرج في مجالس العلم والعرفان وأضاء قلوبنا بنور المحبة والإيمان وجذبنا إلى ساح العلم والدراسة والبحث وفتّق أذهاننا على أسرار هذا الكون انطلاقاً من ذات الإنسان إلى كل ذرة من ذرات هذا العالم الواسع.

إلى من كان سبباً في إيماننا وتنشئتنا على الروح الإسلامية العاشقة لدينها والعاملة على النهوض به.

إلى اليد التي انتشلتنا من ضياع وأقالتنا من عثرة فنهضنا وكلنا أمل أن نحمل هذه الراية ونستضيء بتلك الشعلة.

إلى كل العاملين على نشر رسالة السماء في بقاع الأرض بهمة لا تضعف وعزم لا يلين.

إلى الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله.

إلى هؤلاء جميعاً

أهدي هذا الكتاب

مقدمة الكتاب

إذا كانت حضارة الغرب قد دخلت عصر السرعة وسارت في سباق مع الزمن فأوجدت العقل الآلي والصاروخ والذرة، ونهضت إلى الكواكب بهمة عالية وأعطاها ذلك صفة العالُمية بين حضارات الأمم، إلا أن ذلك لا يعني تفردها وتميزها من باقي الحضارات وخاصة حضارة الإسلام. فالإسلام يظل هو السابق وهو الذي رسم الطريق الذي عبرت عليه تلك الحضارة والجسر الذي انتقلت فوقه. وإذا كانت الحضارة عامة والمدنية تقوّم بخواتيمها وبما تتركه من آثار فإن هذه الحضارة اليوم لتنوء بأرزاء وتثقل بتبعات أكبر بكثير مما نهضت إليه من اقتحام الزهرة وعطارد وبقية الكواكب.

أن تخطط علمياً وعقلياً لتغزو الفضاء أو تغوص في

الماء أو ترفع ناطحات السحاب، فذلك ما اشتركت فيه أكثر من أمة. أما أن تخطط من أجل أن تقتحم عروش القلوب ومداخيل النفوس فتحولها من الرذائل إلى الفضائل وتنشر الأمن والطمأنينة في العيون والقلوب، وترفع لواء العدل والمساواة بين بني البشر، وتؤاخي بينهم في وحدة إنسانية عالمية ليس فيها أحقاد ولا ضغائن ولا ثارات ولا حروب. أن تهيئ إنسان الأرض لأنبل غاية وهي خدمة بني الإنسان فتدفعه إلى نضال دائب من أجل صالح البشر فكراً وعقيدة وعلماً وصناعة وحضارة. فهذا ما تفرّدت به رسالة الإسلام من بين كل الرسالات السماوية أولاً، ومن بين كل الدعوات والمذاهب الوضعية القديم منها والحديث ثانياً.

الإسلام رسالة الخير والمحبة والهداية والفضيلة، رسالة العلم والنور، دين الحرية والكرامة الإنسانية، دين العدالة والحبّ، شريعة التآلف والمساواة الدين الذي يراقبك في كل عمل تأتيه، في كل خطوة تخطوها ويلاحقك في كل قول أو فعل تقوم به، في كل بناء تشيده في كل حضارة ترفع صرحها ليصحح لك النيّة فلا تنحرف عن الهدف السامي الذي أراده الدين وبذلك تضمن الحضارة لأبنائها هوية الاستقامة في دروب الحياة فلا تضلّ

ولا تتعالى على البشر ولا تهدد وتتوعّد الإنسان على الأرض بدمار شامل ينتظره.

هذا الدين لم يكن عالمياً لأنه حوى دستوراً وقوانين عالمية وإنما لأنه طبق هذه القوانين ونجح في التطبيق وحرر نصف العالم من حكم الطواغيت وحرر الإنسان من أسر الشهوات، وحرر الحكام من شهوة الحقد والظلم وإراقة الدماءو وحرر الجميع من عبودية المادة وحرر المجتمع من كل ما يسيء إليه من عبادة الزعيم وألوهية الإنسان ووثنية العقيدة، وخلص الإنسانية من مآسي الحروب وطغيان الجبابرة في الأرض، وأقام دولة ممتدة من الصين إلى حدود فرنسا يحترم أبناؤها القانون والتشريع ويفخرون بما حققوه من تحرير شعوب الأرض وما نشروه من علم وعرفان.

العالمية سمة هذا الدين في كل خطوة يخطوها سواء في وحدة الأمة العربية أو الوحدة الإسلامية أو وحدة العالم على اختلاف أقطاره... وما زال الإسلام يتطلع إلى اقتحام الحدود ليكون منية البشرية والعامل على سعادة الإنسان التي افتقدها منذ قرون.

ولن تهدأ الأرض من النوازع الشريرة والبغي

والحروب إلا بالإسلام ولن تستطيع الإنسانية أن تجد راحتها إلا في أحضانه، فهل سيتطلع بنو الإسلام إلى دينهم فيعرفوا عظمته ويعملوا جاهدين على نشره في الخافقين ويكونوا كما قال الله فيهم ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

كل الدلائل تشير اليوم إلى صحوة إسلامية تلفّ أرجاء الأرض ولعله قريب ذلك اليوم الذي نرى فيه هذا النور يعلو كل رابية ويجتاز كل حدود ليصحح مسيرة الإنسان في تاريخه الحاضر ويقود البشرية إلى طريق السلامة بشعارات التوحيد والعلم وكرامة الإنسان. وهذا عبء كبير ينوء بحمله الرجال، ولكن المخلصين منهم يستسهلون كل صعب وهم ماضون في الدرب لا يأبهون إلا أن ترتفع راية الإسلام. وعلى قدر همم الرجال تكون الأهداف وتتحقق الغايات، فلنثق بأنفسنا ولنثق بديننا ولنتقدم بخطوات جريئة لنوصل هذه الرسالة إلى أبناء الأرض لتتحول الأرض إلى جنة ينعم الجميع فيها بالحرية والعدالة والمساواة.

وما ذلك على الله بعزيز

دمشق في 10/ 3/ 1990م

الفصل الأول

التوحيد عقيدة عالمية

منذ أن كان الإنسان على وجه الأرض كانت عناية الله أسبق إلى الإحاطة به من أنفاسه فهداه سبيل الفطرة السليمة ومنحه عقلاً نيراً يفكر به ويقدّر ويرسم حياته على أكمل وجه. ولما كانت العقائد يخالطها أوهام الزمن فلا تزال بحاجة إلى التهذيب والتطهير كلما ابتعد العهد بينها وبين مصادرها الأولى، ولما كان الإنسان مبتلى بالأهواء والشهوات والحياة الدنيا بحيث تستطيع أن تسلب لبه إذا استجاب إليها وحتى لا تكون للناس على الله حجّة لذا أرسل الله الرسل وأنزل الكتب السماوية لهداية الخلق وقد أعذر الله إلى خلقه بقوله:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: 15].

وقد تتالت الرسل دعاة إلى وحدانية الله، عقيدة الفطرة

الإلهية والتي ألهمها كل مخلوق، ولكن الناس على امتداد القرون كانوا يشذون في معتقداتهم عن عبادة الله الواحد إلى عبادة الأفراد أو الأجرام السماوية من نجوم وأقمار أو عبادة أصنام لا تضر ولا تنفع، ووصف لنا القرآن الكريم ضلال اليهود والنصارى وتحريف عقائدهم بما جعلها غير صالحة لتطور الزمن وتقدم العلوم، مما أدى إلى اقتحام معتقدات أخرى أكثر عقلانية أو مصادمتها بالتطور العلمي والفكري للإنسان بحيث صارت لا تتلاءم مع تقدمه الحضاري.

وقد كانت عقائد البشر تتراوح بين الوحدانية لله، وبين الخلط بمعتقدات باطلة تتنافى معها بحيث تتغلب على عقول البشر أوهام العقائد الزائغة، وتضيع الحقيقة بين أحبار ورهبان أو كهان يقودون الناس إلى سراب مجهول وظلام عقائدي دامس لطالما فقدت الإنسانية فيه سبيل العقل ونور البصيرة، وفي غمرة هذه الظلمات المتراكبة كان الأنبياء هم هداة البشر ومنارات الأمم يصلحون ما أفسد الدهر ويقومون اعوجاج عقائد البشر بأسلوب رباني حكيم وإذا لم يفقه رسالاتهم كل الناس فما ذلك إلا من عنادهم وجهلهم ومن الحرية التي منحها الله لهم فلا إكراه في الدين، فالحقائق بادية وشواهد الوحدانية قائمة،

والعقول ممنوحة لأصحابها بحيث لو أطلقوها في معالم السماء والأرض لاهتدوا إلى ذي العرش سبيلاً وصدق الله تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: 42].

وقد بلغ من جهل الناس أنهم ارتضوا أن يكون الإله بشراً مثلهم يأكل ويشرب وينام ويقوم، وقد ردّ الله على اليهود تأليههم للعزيز وقد كان بشراً ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 30]، ردّ الله عليهم.. ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [التوبة: 31].

وإذا كان اليهود قد عبدوا البشر وحرفوا الوحدانية أن تكون لله وحده، فإنهم ما لبثوا بعد موسى بفترة، وقد مضى إلى مناجاة ربه، أن عبدوا العجل وجعلوه إلهاً في قصة مثيرة حقاً لأولئك الذين استسلموا لعقيدة نبي الله موسى بعد أن رأوا المعجزات والخوارق، وما هي إلا أيام حتى رجع موسى عليه السلام ورآهم على صورة تقشعر لها الأبدان وقد توجّهوا إلى عجل من ذهب. . بل إنهم حرفوا صورة الإله نفسه فكان إلههم ـ يهوه ـ ظالماً قاتلاً يأمر بذبح الأمميين (غير اليهود) ذبح النعاج إذا ما انتصروا عليهم فلا هوادة ولا رحمة بل تجرؤوا إلى قتل الأنبياء. . .

وبهذا حرفوا الوحدانية عن طريقها الصحيح من الحق والعدل والسلام والمحبة للجميع. . .

يقول اللورد ماركولي الكاتب الإنكليزي الشهير: «ولطالما أذّن فينا التاريخ ببيان ما أدخل اليهود قديماً في دينهم من البدع مستمسكين بما أملاه عليهم خيالهم الفاسد من ضرورة أن يكون لهم إله محسوس ملموس يقصدونه بالعبادة والإجلال»[1].

ويعلل نفس الكاتب نشوء الأديان الوثنية «بأن علماء المنطق يبنون عقائدهم على البرهان العقلي وهم يرون أن العقل لا يمكن أن يحيط بكل شيء بخلاف عوام الناس فمعظم أفكارهم إما خيالية أو وهمية فلا تجدهم يبنون شيئاً من مذاهبهم ومعتقداتهم على نظر صحيح وفكر سليم ومن هنا نشأت الأديان الوثنية في كل أمة وفي كل جيل واختلفت باختلاف ما صوره خيال معتقديها»[2].

ولما كان من اليهود ما كان من تحريف وضلال وقتل وانتهاك للحرمات أرسل الله إليهم السيد المسيح وقد

---

(1) كتاب الإسلام دين الفطرة ـ عبد العزيز جاويش.

(2) نفس المصدر.

تبلورت فكرة المسيح في أذهان اليهود في خلع نير الامبراطورية الرومانية من على كواهلهم وأن يقيم لهم مكانها امبراطورية يكونون هم فيها الجنس الأفضل، ولكنه لم يوفق إلى ذلك، فعمل خصومه من اليهود ـ الذين رأوا في رسالته الروحانية تهديداً لنزعتهم المادية ـ عملوا على التآمر عليه، وهكذا وقفوا في وجه دعوات الأنبياء وراحوا يحرفون التوراة بما فيها من وحدانية وشريعة تقوم بها حياة الناس إلى عقيدة تتناسب مع مصالحهم الدنيوية.

النصرانية وعقيدة التثليث:

ثم جاءت النصرانية والتي بدأ تحريفها بعيد قرن من السيد المسيح عليه السلام وانقسمت إلى فرق ومذاهب وقد علق ماركولي على هذا الانحراف بقوله:

«ولم يسلم تابعو المسيح من النصارى أن يصيبهم في إيمانهم ما أصاب اليونان والفرس وغيرهم من قبلهم. فتمثّل الإله لهم في صورة آدمي مشى بينهم وشاركهم في أغراضهم وما يعتريهم من الانحلال والاضمحلال كما كان يبكي على القبور وينام في الحظائر ثم صلب حتى سال دمه على أعواد الصليب فظهروا بذلك للعالم في لباس جديد

من الوثنية ثم كان لهم من القسّيسين والرهبان بعد ذلك لفيف من الآلهة مثال ما كان لليونان فكان القديس جورج لديهم إله الحرب كما كان المريخ عند اليونان. . ».

وهكذا تأثرت المسيحية باليونان فنقلوا عنهم الآلهة المتعددة ودخل توحيدهم الشرك الذي صاروا إليه فتعددت مذاهبهم وقد وصف الله هؤلاء النصارى ناهياً إياهم عن عقيدة التثليث التي دخلت صفاء عقيدة المسيح عليه السلام.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾ [النساء: 171].

ثم أثبت الله عبودية عيسى لا ألوهيته ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ﴾ [النساء: 172] بل صرّح الله تعالى بهذه الحقيقة وعلى لسان سيدنا عيسى نفسه:

﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ

أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۞ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: 116 و117].

وعلّق الإمام القرطبي في تفسيره على كلمة ـ وروح منه ـ في الآية فقال:

«هذا الذي أوقع النصارى في الإضلال فقالوا: عيسى جزء منه فجهلوا وضلوا ولما كان عيسى يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى فاستحق هذا الاسم ـ وروح منه ـ وقد ورد أن جبريل نفخ في درع مريم فحملت منه بإذن الله فقيل ـ وروح منه ـ كما علق القرطبي على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ﴾ يقول[1]:

«قال ابن عباس: يريدون بالتثليث الله تعالى وصاحبته وابنه» والنصارى مع فرقهم يجمعون على التثليث ويقولون: إن الله جوهر واحد له ثلاثة أقانيم فيجعلون من كل أقنوم إلهاً ويصفون الأقانيم: «الأب والابن وروح القدس فيعنون بالأب الوجود وبالروح الحياة وبالابن المسيح في كلام لهم فيه تخبط».

ولكن الإمام القرطبي يرد هذا الكلام ردّاً منطقياً:

(1) تفسير الجامع لأحكام القرآن: المجلد الثالث للإمام القرطبي.

«ومحصول قولهم يؤول إلى أن عيسى إله بما كان يجريه الله سبحانه على يديه من خوارق العادات على حسب دواعيه وقالوا: قد علمنا خروج هذه الأمور عن مقدور البشر فينبغي أن يكون المقتدر عليها موصوفاً بالألوهية فيقال لهم: لو كان ذلك من مقدوراته وكان مستقلاً به كان تخليص نفسه من أعدائه ودفع شرهم عنه من مقدوراته وليس هو كذلك فإن اعترف النصارى بذلك فقد سقط قولهم ودعواهم أنه كان يفعلها مستقلاً بها، وإن لم يسلموا لذلك ـ ولا حجة لهم ـ لأنهم معارضون ـ في كلامهم ذاك ـ بموسى عليه السلام وما كان يجري على يديه من الأمور العظام مثل قلب العصا ثعباناً وفلق البحر واليد البيضاء والمنّ والسلوى، وكذلك ما جرى على يد الأنبياء، وإن أنكروا ذلك فننكر ما يدعونه هم أيضاً من ظهوره على يد عيسى عليه السلام، فلا يمكنهم إثبات شيء من ذلك لعيسى فإن طريق إثباته عندنا نصوص القرآن وهم ينكرون القرآن ويكذبون من أتى به فلا يمكنهم إثبات ذلك بأخبار التواتر».

وما أروع ردّ البوصيري في همزيته وهو يعالج قضية التثليث بأسلوب أدبي ساخر وحجج ليس لهؤلاء دفع لها[1]:

---

(1) ديوان البوصيري.

خبرونا أهل الكتابيين من أيـ

ـن أتاكم تثليثكم والبَداء

(والبداء: قال اليهود إن الشرائع لا تنسخ بعضها وإن النسخ يقتضي البداء وهو ظهور مصلحة في الحكم كانت خافية على الله في الأمر المنسوخ فتعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً).

ما أتى بالعقيدتين كتابٌ

واعتقادٌ لا نص فيه ادّعاء

والدعاوى ما لم يقيموا عليها

بينات أبناؤها أدعياء

ويروح البوصيري ناقضاً عقيدة التثليث:

ليت شعري ذكر الثلاثة والوا

حد نقصٌ في عدكم أم نماء؟

كيف وحّدْتُم إلهاً نفى التوحيـ

ـد عنه الآباء والأبناء

أإله مركبٌ ما سمعنا

بإله لذاته أجزاء

ثم يروح ساخراً بأسلوب شعري معالجاً قضية من أعظم القضايا عند النصارى:

الكل منهم نصيب من المُلْـ

ـك فهلا تميّز الأنصباء[1]

أتراهم لحاجة واضطرار

خلطوها وما بغى الخلطاء

أهو الراكب الحمار فيا عجـ

ـز إله يمسّه الإعياء

أجمع جميعٌ على الحمار لقد جلّ

حمارٌ بجمعهم مشّاءُ

أم سواهم هو الإله فما

نسبة عيسى إليه والانتماء

أم أردتم به الصفات فلم خُصّـ

ـت ثلاثٌ بوصفه وثناء

(1) الأنصباء: جمع نصيب: أي ما هو نصيب الأب والابن وروح القدس من الكون.

ثم يعلق على قتل اليهود له ـ في اعتقادهم ـ وقد كان يحيي موتاهم فكيف غلبته اليهود.

قتلته اليهود فيما زعمتم
ولأمواتكم به إحياء
أم هو ابن الإله ما شاركته
في معاني النبوة الأنبياء
إن قولاً أطلقتموه على اللـ
ـه تعالى ذكراً لقولٌ هراء

وقد أورد العلامة محمد فريد وجدي عن نهج البلاغة مقولة لسيدنا علي بن أبي طالب يصور عقيدة النصارى ومجملاً إياه بقوله: «كذب العادلون بك إذ شبّهوك بأصنامهم ونحلوك حلية المخلوقين وجزّؤوك تجزئة المجسّمات بخواطرهم وأشهد أن من ساواك بشيء من خلقك فقد عدل بك والعادل بك كافر بما تنزلت به محكمات آياتك. .»[1] أما قوله: كذب العادلون فهم الذين جعلوا الأصنام أو غيرها من المعبودات معادلة لله في الخلق

---

(1) كتاب الإسلام دين الهداية والإصلاح ـ محمد فريد وجدي ـ سلسلة دار الهلال.

والإيجاد وهؤلاء وصفهم الله بالكفر في مطلع سورة الأنعام: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

وأما قوله: «وجزؤوك تجزئة المجسمات..» فمأخوذ من قول الله في سورة الزخرف: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: 15] أو قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ [الزخرف: 16] يقول القرطبي: «الجزء هو العدل والجزء هنا البنات فقد عجب المؤمنون من جهلهم إذ أقروا بأن خالق السموات والأرض هو الله وجعلوا له شريكاً أو ولداً ولم يعلموا أن من قدر على خلق السموات والأرض لا يحتاج إلى شيء يعتضد به أو يستأنس به لأن هذه صفات النقص، وقد جعلوا له من عباده جزءاً فوصفوه بصفات المخلوقين فقالوا الملائكة بنات الله فجعلوهم جزءاً له وبعضاً».

وقد ردّ الله عليهم هذا الافتراء ردّاً محكماً في صورة كراهيتهم هم للبنات إذا رزقوا بهن ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف: 17]، بل إن الله تحداهم أن يثبتوا بالبرهان والدليل صحة مقولتهم إن لله ولداً وإلاّ ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ

بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ [المؤمنون: 117]، وفي حوار القرآن الكريم لهؤلاء وصل إلى حد أن تنزّل معهم إن استطاعوا أن يثبتوا ذلك أن يكون الرسول أول عابد له ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف: 81]. فلما عجزوا عن ذلك راح القرآن الكريم يثبت رسالة عيسى عليه السلام وبشريته بقوله: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ﴾ [المائدة: 75]، ولهذا فمن رأى غير هذا الرأي بدون حجة أو دليل فقد صدق فيه قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ﴾ [المائدة: 73]، بل إن الله لينفي ألوهية عيسى وعلى لسانه بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ﴾ [المائدة: 72]، ألا ترى معي كيف أثمرت تلك العقيدة في تأليه المسيح تضارباً بين العقل والعلم وبين الدين والكنيسة بحيث لم تستطيع الكنيسة إقناع هؤلاء العلماء فوقفوا في طريقها وتردوا إلى مذاهب عقلانية مختلفة فضل من ضل واهتدى من اهتدى.

الإسلام وصفاء التوحيد:

أما الإسلام كعقيدة فقد قامت على أساس وحدانية الله

وتنزيهه عن الشريك والصاحب والولد والند والنظير فليس كمثله شيء وقال الأصوليون «كل ما خطر ببالك فالله خلاف ذلك».

وقد أثبت وحدانية الله بما يليق مع جلال الله وجماله من صفات وتوحيد ونفي ذلك عن البشر أو الأصنام أو عناصر الطبيعة.

وإذا كان الإسلام قد ناهض الهيلينية سياسياً وتأثّر بها مثلما تأثرت بها المسيحية وأمكنه استيعاب مناهجها الثقافية والدينية، لكن آرنولد توينبي الكاتب الإنكليزي الكبير يقول: «بأن ثمة فارقاً بين تأثر كل من الديانتين، فقد تأثرت المسيحية عن رضى واختيار بما أنكره الإسلام تماماً، ـ ويعني به تأليه السيد المسيح والفكرة التي تستتبعها من اعتبار الربوبية ذات أقانيم ثلاثة ـ فالإسلام يضفي على عيسى مكانة سامية لكنه لا يسلّم بألوهيته قط كما ينكر صلبه وفكرة التكفير عن الخطيئة البشرية الأزلية ويعتبر التثليث شركاً بوحدانية الله لا يغتفر» كما يعلن توينبي عن عدم تأثر الإسلام بالمخاطر التي تأثرت بها الديانات السابقة[1]:

---

(1) كتّيب «حضارة الإسلام في دراسة توينبي للتاريخ: فؤاد محمد شبل. =

«وإذا كان استخدام العقيدة الدينية الإسلامية قد عرض الإسلام للمخاطر التي تعرضت لها العقائد الدينية الأخرى التي استخدمت الدين أداة لإدراك أهداف سياسية فإن الإسلام وحده قد سلم من هذه المخاطر»، ويزيدنا مشيراً إلى جوهر الوحدانية الأصيل في الإسلام «وبمرور الأجيال تبين عظم الرسالة الروحية التي أبلغها محمد ﷺ إلى البشرية، وإذا كانت الأديان العليا الأربعة التي ما تزال قائمة في القرن العشرين: الإسلام والمسيحية والهندوكية والبوذية مجرد ألوان أربعة لمنهج واحد فإن الإسلام ـ في رأيه ـ قد أعاد توكيد وحدانية الله في مقابل الضعف البادي في تمسّك الأديان الثلاثة الأخرى بهذه العقيدة الجوهرية».

وما لنا نبعد وهذا كتاب الله تعالى يكاد أن يكون أكثر من ثلثه قائماً على إثبات وحدانية الله فطرة وعقيدة، عقلاً ومنطقاً وحججاً عقلية، بل وتحدياً لكل من يحاول أو يظن أو يعتقد أن لله شريكاً، وبتصفح كتاب الله عز وجل نرى أن جلّ السور المكية إنما جاءت لإثبات هذه الوحدانية بطرق شتى وأساليب مختلفة من حوار رائع بين الأنبياء وأممهم،

= سلسلة المكتبة الثقافية العدد/ 211/ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر.

ومن مخاطبة للعقول الإنسانية عبر التاريخ. وما يزال التحدي قائماً وما يزال القرآن الكريم يخاطب جميع البشر نافياً أن يكون لله شريك أو مساعد أو ولد، واستمع معي إلى هذه الآيات: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاؤُا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: 21].

﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: 45].

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأحقاف: 22]

وهذا منطق المغلوب والعاجز عن إثبات ألوهية تلك الأصنام بل تحداهم الله أن تنصرهم تلك الآلهة: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأحقاف: 28].

وانظر إلى تصوير موقف هؤلاء المشركين يوم القيامة ودفاعهم عن أنفسهم كذباً: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 22]

ثم أثبت القرآن الكريم تمكن تلك العقائد الضالة في

نفوسهم وأنهم لن يتراجعوا عنها ولو رأوا الدلائل واضحة ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: 111].

هذه الآيات ومثيلاتها في القرآن الكريم كثيرة تنعي تلك العقائد الباطلة التي خرج بها أتباع الديانات السابقة عن توحيد الله إلى عبادة آلهة لا تضر ولا تنفع ولكن رسالة الإسلام حافظت على تلك الوحدانية بصفائها ونقائها والذي أتى به الرسل جميعاً، وقد أشار القرآن إلى توحيد الرسل جميعاً لله فمن ذلك دعوة نوح قومه إلى الوحدانية.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: 59].

ومنها دعوة سيدنا هود قومه: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾، ومثله دعوة صالح قومه ثمود ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ وهذا شعيب يدعو قومه مدين ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: 85]

وهذا أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام يوصي أبناءه بكلمة التوحيد:

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 132]، ومر معنا من قبل دعوة عيسى عليه السلام إلى وحدانية الله وذاك موسى عليه السلام بعد أن حطم صنم وإله السامري التفت إلى بني إسرائيل مخاطباً ﴿إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: 98].

وها هم كفار قريش يفدون على رسول الله قائلين: صف لنا ربك فنزل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

بل إن بعض كفار قريش أتوا رسول الله ﷺ طالبين حلاً وسطاً أن يعبد آلهتهم يوماً ويعبدون هم إلهه يوماً فأنزل الله عليه ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ * لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: 1 ـ 3].

وبهذا تلتقي دعوات الأنبياء والرسالات السماوية على عقيدة التوحيد بالحجة والدليل والبرهان المنطقي. وما زال القرآن يتحدى ويخاطب كل عقول البشر أن تبرهن على

وجود إله قادر خالق غير الله سواء أكان حجراً أم إنساناً أم شمساً أم قمراً . .

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 111] . . وإلا فـ ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ . . .﴾ .

لقاء الدين والعلم في إثبات الوحدانية :

وإذا كانت الديانات السماوية بما في ذلك الرسل والأنبياء أجمعوا على وحدانية الله فإن كتاب الله خاطب عقول البشر أن يتفكروا في ملكوت السموات والأرض. فإن ضلّت شرائعهم فإنهم واجدون في الكون آية بل آيات أخرى وأدلة عملية على عظمة وجود الله، وقد فتح أمامهم المجال واسعاً وأطلق العقول لتفكر وتبحث لتصل عن طريق الآيات المرئية في الكون إلى تلك الحقيقة الخالدة، وهذا ما فعله العلماء اليوم ومنذ قرون تفكراً وتدبراً واستقراء واستنتاجاً، وقد توصل المنصفون منهم والمتنوِّرون الذين استجابوا لنداء العلم والعقل بنزاهة وأمانة ودون تعصب أو تزمت أو جحود للحقائق، توصّل الكثير منهم إلى إثبات وحدانية الله عز وجل رغم انحراف شريعتهم عن ذلك ورغم جمود الكنيسة على مبدأ التثليث والصلب والتكفير . . .

ونظرة واحدة إلى كتاب «الله يتجلى في عصر العلم» تثبت لك ذلك:

يقول ميريت كونجدن عالم الطبيعة والفيزياء. : «إن جميع ما في الكون يشهد على وجود الله سبحانه ويدل على قدرته وعظمته».

وهذا جون وليام كلوتس عالم الوراثة يقول: «السماء تشهد بجلال الله، وإحكامها يدل على بديع صنعته» ثم يسخر من الملحد بقوله: «يقول الأحمق في نفسه ليس هناك إله». وهذا أستاذ الكيمياء الجيولوجية رونالد كار يتوصل في أبحاثه إلى مناجاة الله بهذا النشيد العذب: «يا إلهي العظيم عندما أنظر بعجب ورهبة إلى كل العوالم التي صنعتها يداك وأبصر النجوم وأسمع هدير الرعد وزمجرته عندئذ تتجلى لي قوتك في كل أرجاء الكون، وعندها تغني روحي وتناجي: إلهي الكبير ما أعظم إبداعك ما أعظم إبداعك».

وذاك زمرمان اختصاصي التربة يقول: «كلما ازددت دراسة وتعمقاً في دراسة طبيعة التربة والنباتات ازداد إيماني بالله وسجدت له إعجاباً وتقديساً».

بل ها هو الفسيولوجي آندرو كونواي يقطع الطريق

على أولئك الملحدين الذين يظنون بأن في حوزتهم الدليل على عدم وجود الله بقوله: «إن أحداً لا يستطيع أن يثبت خطأ الفكرة التي تقول إن الله موجود، كما أن أحداً لا يستطيع أن يثبت صحة الفكرة التي تقول إن الله غير موجود».

وما تلاقي هؤلاء العلماء في الطب والفلك والتربة والحيوان والذرة والكيمياء والطفيليات، ما تلاقيهم جميعاً على إثبات وجود الله مصادفة وإنما عن طريق دراسة علمية عملية توصلوا من خلالها على أن كل ذرة في الوجود لا تتحرك إلا بإرادة الله وأن هذا الكون لا يتحرك إلا بقوانين تنتظمه وتديره من الذرة إلى المجرة، قوانين فوق طاقة عقول البشر والتي هي أعجز من أن تحيط بها فكيف تفسِّرها أو تكون موحدة لها ولهذا خضعوا وسلموا لله الخالق الحكيم.

وإذا كانت الشعوب لم تستوعب كلمة التوحيد التي هي نداء الفطرة فليس ذلك إلا لأن أهل الشقاء قد أفلحوا في إضلالهم وحجب الحقيقة الساطعة عنهم وأن المنحرفين والذين أعمتهم الأهواء والشهوات وسحرهم بريق المادية قد أغرقوا العالم بما غشّى على عقول الناس أنوار الحقيقة

وألهاها عن التفكير بخالقها فاتخذت أرباباً شتى من دون الله . . .

وإذا كان الأمر كذلك فإن عقلاء وحكماء كل عصر، وعلماء هذا القرن قد أثبتوا وبالدليل القاطع وجود الله فأعلنوا توحيدهم رغم ظروفهم القاهرة غير مبالين إلا أن تعلو كلمة الحق فوق كل رابية، إن صرخة التوحيد في قلب كل مخلوق ولكن لا يسمعها إلا الأحياء وإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم النداء ولكن الله هو الذي يريهم آيات مقروءة في كتابه ومرئية في أرضه وسماواته.

إن شواهد وجود الله في الكون أسطع من نور الشمس عرفها من عرف وجهلها من جهل آمن بها من آمن وكفر بها من كفر، ورغم ذلك ما أكره الله أحداً على عقيدة وإنما رسم أمامه الطريق وزوّده بكل ما يوصله إلى دار السعادة ليتبصر بعقله ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: 29].

وبالتقاء توحيد الأنبياء والرسل مع توحيد العلماء في هذا القرن يثبت لدينا أن التوحيد عقيدة عالمية، وليست عقيدة نبي أو عصر أو قرن واحد وإنما هي أصل الرسالات السماوية جميعاً، والغاية التي انتهى إليها العلماء في دراساتهم، تلك هي رسالة الإنسانية والعقيدة التي تجمع

بين الأمم في نطاق من التعاون والتحابب حيث لا ظلم ولا إلحاد ولا بغي ولا فساد في الأرض. إن رسالة التوحيد ستظل تؤتي أكلها خيراً وبركة ورقياً للإنسانية فوق هذه الأرض، كي تأوي إلى جناب الله فتجد أمنها وسلامها وتسمع نداء الله لها ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: 32].

الفصل الثاني

الإسلام دين العقل والعلم

عندما بزغ نور الإسلام على العالم كان الناس يموجون في جهالة جهلاء وضلالة عمياء تنزلت فيها العقول من علياء الكرامة والتقدير لأبنائها إلى حضيض الاضطهاد والجور والتعسّف، فكانت أمم الأرض قد أوشكت أن تتقوقع فيها العلوم وتنحصر في إطار من عصبية الدين وجموده، بحيث راح المتنوِّرون من العلماء يلاحَقون ويُقتَلون ويفرون من وجه السلطة التي أرادت تحجيم علومهم وعقولهم بما يتناسب مع مصالحها فارتدّ الإنسان عن أن يكون سبباً في تطوير نفسه، فضلاً عن أن يساهم في حضارة العالم بما أوتي من علم وعقل، وكذلك تنتهي الأمم عندما تضيع فيها كرامة العلم وإجلال العقول.

وإذا كانت الحضارات لا تقوم إلا بسلطان العلم

والعقل، وكان العلماء في مثل ذلك الحصار النفسي والمادي الذي كانوا عليه قبل الإسلام فماذا يبقى لتلك الحضارات من رقي أخلاقي أو أدبي تتباهى به بين الأمم. ولكن الحياة لها قوانين والأمم تسير ضمن أنظمة تخضع لها شاءت أم أبت، فإذا كان أهون ما لديها العلم، وأحقر ما تنظر إليه هم العلماء فما أسرع ما تنذر بزوالها ولو كانت على مُلْك عظيم وسلطان جبار. وقد عرفنا أمماً كثيرة كان لها صولة في الميدان السياسي والحربي وإخضاع الشعوب ثم ما لبثت أن استمرأت قواعد الجهل والعداء العقلي للإنسان فكانت لعنة التاريخ والإنسانية حيث حملت معول الهدم والفتك وراحت تطعن الإنسان في أعزّ ما يملك وهو العلم والعقل، فمسخ الإنسان فيها حتى صار أذلّ من وتد. . . وكانت النهاية بزوال تلك الدول والممالك.

حرية الفكر قبل الإسلام:

وإن شئت دليلاً على ذلك فانظر إلى الإغريق كيف بدت فيهم نزعة الخروج على الأديان وكيف راحوا يعادون هذا الإنسان العالم الواعي، ويحرقون الكتب ويحرمون بيعها، هذا سقراط يستعرض عقائد قومه المألوفة ويمتحنها بمحك الفكر غير آبه بتقاليدهم، سالكاً مسلك التفكير

الصحيح، فماذا رأى؟ شاهد اليونانيين على حالة من التخبط وتجاوز الحق إلى الباطل، والتبست الأمور عليهم حيث اعملوا في العلوم معاول التشكيك ضلالاً وتضليلاً، فراح سقراط يخاطبهم على قدر عقولهم ورغم أن أثينا يومئذ أكثر البلاد ديمقراطية وتسامحاً وحرية نجد التاريخ يسجّل ما لا نصدقه من الاضطهاد الذي نال أصحاب الدعوات إلى حرية التفكير والاحتكام إلى العقل، ولكنهم ثاروا عليه واعتبروه ملحداً ومفسداً لعقائد الشباب وقتلوه سنة 299 ق.م. وبعد سبعين سنة اضطر أرسطو أن يرحل عنهم حتى لا يلقى نفس المصير[1].

وقد ترك كل من أفلاطون وأرسطو كذلك أثراً في تحرير عقول أهل أثينا، كما تركت الفلسفة اليونانية أثرها في تحرير العقل الإنساني وفي الشرائع الرومانية إذ كان أساس القانون المدني في الامبراطورية الرومانية إباحة علنية لجميع الأديان والجهر بسائر الأفكار.

وقد لازمت حرية الدين، وحرية الجهر بالفكر الشرائع الرومانية حتى دخلت الديانة المسيحية في أوروبا فضربت

(1) كتاب الإسلام دين الفطرة والحرية ـ عبد العزيز جاويش.

هنالك حولها نطاق الحَجْر والحظر لما كانت عليه من التقاليد الوثنية[1] وكان الرومان هم الذين بدؤوا الحظر على الأديان لأنهم كانوا يعتبرون المسيحية فرعاً من اليهودية التي تناهض بطبيعتها، الوثنية الرومانية، حتى أصدر «تراجان» قانون الحكم بالقتل على من يدين بالنصرانية، وجاء الذين من بعده فنظموا المذابح للمسيحيين بكل فظاعة وبشاعة. وما ذلك إلا لأن المسيحية كانت تقبّح ما اعتاد عليه أباطرة الرومان من رؤيتهم ضرورة أن تخصهم الشعوب بالعبادة توحيداً لكلمتهم وتعلقاً بعروشهم، وبدخول قسطنطين الكبير في النصرانية دارت الدائرة على العقل بالاعتقال والاسترقاق، فبينما كان رجال المسيحية قبل ذلك ينادون بأن التسامح واجب وأن العقيدة لا يلزم بها الإنسان جبراً، إذ بهم يفتنون بدخول قسطنطين إلى النصرانية وانقلب الأمر عندهم حيث صاروا يرون أن النجاة لا تكون إلا بقبول المسيحية وراحوا يقيمون المذابح المروعة لكل من خالفهم.

وكان من هؤلاء سانت أوغسطين (مات 430م) فقد وضع نظام اضطهاد من لا يقبل النصرانية واستمر ذلك من

(1) الإسلام دين الفطرة والحرية ـ عبد العزيز جاويش.

بعده متبعاً إلى القرن 12م؛ وراحوا يلحقون الناس في كل ما يظهر فيهم من بدع وعقائد حتى أنه أقيم نظام التفتيش في المنازل 1233م للبحث عن الملحدين وتم في عهد أنوسنت الرابع 1252م تنظيم ذلك ومنح البابوات السيطرة المطلقة لتنفيذ ذلك، وساعدهم على تنفيذ ذلك ما وضعه الأباطرة لعقاب الملحدين من القوانين القاسية.. ورغم حرية التفكير عند فريدريك الثاني فقد أصدر أمراً بأن كل من ينكر ويبتدع شيئاً في النصرانية يعتبر خارجاً على القانون، يحبس ويحرق وتصادر أمواله وأملاكه وطبق ذلك خمسة عشر عاماً في إيطاليا وألمانيا. حتى نسخ عام 1676م[1]. وقد استمر تطبيق هذه القوانين الجائرة على المسلمين واليهود بأفظع الطرق الوحشية. ولم تنسخ إلا في القرن التاسع عشر وكانت القاعدة التي قام عليها نظام التفتيش (خير أن يقتل مائة من الأبرياء من أن يلحد فردٌ واحد).

ولما ظهرت فلسفة أرسطو مشروحة بواسطة العرب أواخر القرن 12م وعلى يد ابن رشد وأمثاله كان لها دور كبير في تحرير عقول أوروبا ورغم ذلك ناهضها بعض البابوات ووقفوا في وجهها وحكموا بفسادها..

---

(1) نفس المصدر السابق.

وهكذا عملت الكنيسة على اضطهاد العقول وملاحقة العلماء وحاصرت أصحاب الأفكار الجديدة ولجأت إلى القتل والتشريد فعملت بهذا على تأخر ركب الحضارة، ولولا بصيرة العرب وتفتح العلوم فيهم في الأندلس، والتي ركب الغرب جسوراً لنقل علومهم لبقيت أوروبا تسبح في عصر الظلمات إلى قبيل القرن التاسع عشر.. ولم تتخلص العقول من تسلط اللاهوت المسيحي ومن ملاحقة القساوسة والرهبان إلا عندما أصدر الكاردينال مانبج الإنكليزي عام 1846م، بلاغاً قال فيه:

«إن لكل إنسان أن يعتقد ما يراه بنظره صحيحاً وأنه ليس للكنيسة حقّ الإكراه على العقائد، وأن علم ما وراء الطبيعة يمكن بل يجب ألا يتقيد بالوحي ولا برغائب الكنيسة، وأن للكاثوليكيين حقّ دعوة من يشاؤون من مهاجري الملل الأخرى، وأنه يجب على البابا أن يقيم في سلام مع الرقي العلمي والحرية والمدنية»[1].

نظرة الإسلام إلى العقل والعلم:

في تلك الأجواء المظلمة والاضطهاد المتعمد لملاحقة

---

(1) نفس المصدر السابق.

العلماء وفرض الآراء المتحجرة التي لا تتوافق مع العقل والمنطق، وفي غياب العالم المنقذ الذي يستطيع أن يحرر العقول البشرية من الأغلال التي قيدتها، في هذه الأجواء أشرقت شمس الإسلام لتعلن نهاية عهود الظلم والظلام وتطلق العلم من إساره وتأخذ بيد العلم في أدنى الأرض وأقصاها ليكون سبباً في تحرير الإنسان أيّاً كان لونه أو جنسه فلا سيطرة لكنيسة ولا لمذهب ولا لحاكم ولا رأي إلا ما يبنى على العقل والمنطق والحكمة.

وكانت أول كلمة نزلت من التشريع الحكيم كلمة ـ اقرأ ـ داعية إلى العلم وتفتح العقول، ومناهضة للجهل والجاهلية ومنزهة العقول عن الغايات والعصبيات في نطاق دين هو الفطرة السليمة.

وكان أول عمل قام به رسول الله ﷺ تحطيم قواعد التدين في مرحلة الجهل، وهي التقليد الأعمى للآباء والأجداد وإهمال النظر الحرّ وإغفال التفكير ومنابذة العلم إلا ما كان موافقاً للدين في نظرهم، فأهاب الإسلام بالناس إلى اعتبار العقل وتقديره وسيادة العلم والدعوة إلى النظر والفكر والبرهان والتحرر من الجاهلية.

وإذا كنا رأينا أن غزاة أوروبا والأمم السابقة كانوا

يفتتحون البلاد ومعهم دعاة الدين ينشرون دعواتهم في ظروف الإكراه والضغط والإلزام فإن رسول الله ﷺ قد أرسى العقيدة على أرسخ قواعد العلم والمعرفة وفي منتهى الحرية لكل إنسان حيث لا إكراه في الدين.

وقد فاجأ الإسلام الناس جميعاً بقواعد جديدة للعلم لم يتوقعوا أن يسمعوها كان أساسها قول النبي ﷺ: «**الدين هو العقل ولا دين لمن لا عقل له**». بينما كانت سنّة قادة الأديان قبل ذلك في مشارق الأرض ومغاربها كما تقول دائرة معارف القرن 19[1] «أطفى مصباح عقلك واعتقد وأنت أعمى».

وبهذا طغت الكنيسة على عقول أبنائها وناهضت كل فكر نيّر وعقل متحرر إلى درجة الطرد أو التعذيب أو القتل فعملت على تراجع حضارة الإنسان على الأرض بينما كان أول ما دعا الإسلام إليه هو العلم والتفكير وإيقاظ العقول من سباتها ومن ثم نعى على التقاليد السائدة، والمقلدين للآباء والأجداد بغير علم ولا هوى ولا كتاب منير.. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ

(1) كتاب الإسلام دين الهداية ـ محمد فريد وجدي.

ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: 170].

ورغم عداوة الآخرين لهذه القاعدة الحكيمة ووقوفهم في وجه الإسلام فإن الإسلام لم يبال في طريق تحرير الأمم والشعوب من غفلتها وجهالتها، لم يبال في تطبيق مبادئه أحداً إذ أدرك أنه لا يمكن لها أن تتقدم إلا بالعلم والحضارة وإيقاظ العقول والنظر الحرّ ومحاربة الأوهام والظنون وما أكثر ما دعا كتاب الله إلى ذلك:

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس: 101].

﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ﴾ [الحج: 46] ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ [الزمر: 9].

كما خاطب المعارضين المتحدين بكل عقلانية وتبصر:

﴿هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾ [الأنعام: 148].

ثم أعلن قاعدته العامة في حواره لكل معترض:

﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: 111].

كما أن الإسلام رفع من مكانة العلم والعلماء إلى مكانة ليس بعدها رتبة:

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: 11].

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: 28].

كل ذلك كان دافعاً للمسلمين أن يقتحموا ميدان العلوم كلها ويسابقوا فيه الأمم.

دعوة الإسلام إلى العلم بلا حدود:

شرع العرب كما يقول العلامة ـ درابر ـ بعد وفاة نبيهم بست سنوات، شرعوا يطلبون العلم فلم يدعوا فرعاً من فروعه إلا حذقوه وصاروا أئمة فيه، فلم يمض وقت قصير حتى كانت حضارتهم وعلومهم يفد إليها طلاب العالم ينهلون منها ويقتبسون ما أمكنهم، ومن أغرب ما رواه التاريخ أن الإسلام لاعتماده على العقل والنظر والعلم قرر الأصوليون «أن الإيمان التقليدي في العقيدة غير مقبول فلا بدّ لكل معتقد من أن يكون لديه الدليل على كل ما يأخذ به بقدر درجته من العلم».

وهذا مبدأ متميِّز في الشريعة لا يوجد نظيره في الأديان

والمذاهب حيث رسم خطوطاً عريضة ووضع قواعد ومنهجية بحيث يحفظ العالم نفسه من الغرور بالعلم أو التعالي على الآخرين لدرجة أن المؤرخ العلامة ـ سيديو ـ يقول في تاريخه:

«لقد كان المسلمون متفردين بالعلم في تلك القرون المظلمة فنشروه حيث وطئت أقدامهم وكانوا هم السبب في خروج أوروبا من الظلمات إلى النور»[1].

وما كانوا ليفعلوا ذلك لولا أن الإسلام عندما دعا إلى العلم لم يكن قد وضع حدّاً له بل حضّ على طلب مطلق العلم بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾.

وقول النبي ﷺ «**اطلبوا العلم ولو بالصين**».

وهكذا أباح للعقول أن تبحث في كل ميدان وتكشف أغوار كل مجهول حتى إنهم أباحوا تعلم السحر دون العمل به لكشف أباطيل السحرة.. ومن أجل ذلك دأبوا على جمع الكتب وتكوين المكتبات حتى قيل: كان أحد شروط الصلح بين المأمون وبين ميشيل الثالث أن يعطيه إحدى مكتبات القسطنطينية التي كان فيها من الذخائر كتاب

---

(1) كتاب الإسلام دين الهداية ـ محمد فريد وجدي.

بطليموس على الرياضيات السماوية فأمر بترجمته إلى العربية وسموه المجسطي وقد دفعهم إلى كل ذلك كتاب الله تعالى وما أُجمل فيه من إشارات إلى العلوم وحقائق الوجود.. فقد تكلم عن الكائنات أصولها وفروعها وقد كانت غازاً أو سديماً ثم كيف كوّن تلك السدم والأفلاك والنيازك، وتكلم عن الشمس ونظامها والأرض ودورانها، وعن خلق الإنسان وتكوينه، والبحار وما فيها والسماء وما حوت والرياح وما حملت، وعن مصير العالم إلى أين ينتهي...

وقد كان الإسلام في حثّه على طلب العلم من سعة الصدر للآراء والمذاهب والمطالبة بالفهم والدليل والإشعار بالتبعية الشخصية ونبذ التقليد ما جعله متميزاً، إذ كان الناس إلى عهده صرعى موروثات قديمة وتقاليد وأوهام إلى أن جاء فأطلق العقل من إساره وأرسى المعارف على أساس الواقع المحسوس، فما مضت مائتا عام حتى أصحبوا قادة الحركة العلمية والسياسية في الأرض وكانوا سبباً في حفظ تراث الإنسانية من ثمرات العقول ونتاج الفكر.

فهذه الحركة العلمية التي أنشأوها في أحضان الإسلام، ما آتت أكلها إلا في ركابه وبعلمائه حتى ألمّت بكل المعارف والعلوم وشهد علماء الغرب بذلك وافتخروا بأساليبهم في معالجة تلك العلوم وعبر عن ذلك دابر:

«لقد كان تفوّق العرب في العالم ناشئاً من الأسلوب الذي توخوه في بحوثهم وهو أسلوب اقتبسوه من فلاسفة اليونان فإنهم تحققوا أن الأسلوب العقلي لا يؤدي إلى التقدم وأن الأمل في الوقوف على الحقيقة يجب أن يكون معقوداً بمشاهدة الحوادث ذاتها، ومن هنا كان شعارهم في بحوثهم الأسلوب التجريبي والأسلوب العملي». إلى أن قال:

«وهذا الأسلوب هو الذي حقّق لهم التقدم الباهر في الهندسة وحساب المثلثات ووضع قواعد علم الجبر واستخدام الأرقام الهندية»[1].

وقد كان لهؤلاء العلماء المسلمين من سعة الصدر والمرونة، وحبهم للعلم ما جعلهم لا يأبهون لدين العالم وعقيدته، وما كانوا يزنون قدره إلا بأعماله...

---

(1) كتاب الإسلام دين الهداية ـ محمد فريد وجدي.

ولما كان الإسلام قد أطلق العقل من عقاله، ولما كان المسلمون سيواجهون مذاهب وآراء تخالف ظاهر ألفاظ الكتاب لذا احتاط علماء المسلمين فوضعوا قاعدة أصولية:

«إذا خالف حكم العقل نص الكتاب والسنة وجب التأويل على حكم العقل وتأويل ظاهر النص» لهذا لم يصطدم الدين بالعلم فكان في هذه القاعدة السامية مخرج للعلماء للأخذ بالآراء في شتى العلوم والفلسفة غير آثمين يقول محمد فريد وجدي:

«كانت تلك القاعدة من أعظم ما أوجده الإسلام من القواعد المؤسسة لحرية العلم الموطّدة لدولة العقل».

وهي أدعى للعجب بسموّ هذا الدين والتعجب من سبقه العالم كله نحو عشرة قرون بتقدير المنهج العلمي وإطلاق الحرية والنظر والتفكير بغير اعتداد بشيء غير مصلحة العلم والفلسفة خالصين من كل وصاية أو رقابة.

الردّ على رينان[1]:

رغم اعتراف العشرات من كبار علماء الغرب بالمنهج

---

(1) مستشرق فرنسي صرح أن العقلية العربية والإسلامية خيالية خرافية لا علمية.

العلمي للعرب وبالعقلية العلمية التي كان لها الأثر البارز في تطبيق المنهج العلمي التجريبي على الدراسات العلمية. . وحتى الإنسانية، إلا أن رينان بدافع العصبية لقومه أو نكران جميل المسلمين عليهم راح يتهم العقلية العربية بأنها لا ترضى بالنظرة العلمية، وهذا أغرب ما يوصف به المسلمون، بل هو ليدل على عصبية رينان هذا لبني قومه، وجهالته فقد اضطر أن يفرق بين العقلية السامية والآرية ليبرهن على أن العرب لم يسهموا في الثقافة الإنسانية بل أساؤوا إليها. . قال: «فالعرب والمسلمون خاصة قوم بعيدون عن روح العلم ومناهجه وهم أكثر اهتماماً بالجزئيات وأكثر ميلاً إلى الخيال هذا إلى أنهم يتمسكون ببعض القيم الخرافية والغيبية»[1].

واتهام رينان للعقلية العربية بأنها عقلية خيالية لا ترضي النظرة العلمية يغاير الواقع، وتحمل هذه الفرية في ذاتها الردّ عليه مما يجعلنا ندرك أن رينان نفسه لم يكن يدرك أن للخيال دوراً في الجمع بين جزئيات الموضوع وصولاً إلى القانون. بل إن الدكتور محمود قاسم ليرى في كلامه مدحاً

---

(1) دراسات في الفلسفة الإسلامية ـ د. محمود قاسم.

في صورة الذمّ[1]، ذلك لأن المنهج العلمي الحديث يقوم أساساً على جمع الملاحظات والتجارب في العلوم الطبيعية ثم يحاول الربط بين هذه الملاحظات والتجارب بفكرة يتخيل الباحث أنها تفسر الوقائع وتلك هي مرحلة الاختراع التي يقوم فيها الخيال بالوظيفة الرئيسية ثم يلي ذلك مرحلة التأكد من صدق هذه الفكرة والفرض لتصبح بعد ذلك قانوناً أو حقيقة علمية.

وفي الرد على رينان نقول إن العرب هم الذين وضعوا أصول البحث العلمي ومناهجه الدقيقة والتي تعتمد على عنصرين: عنصر الوقائع والظواهر الجزئية وعنصر الخيال الذي يربط هذه العناصر ليصل إلى القانون وقد طبق العرب هذا المنهج في الدراسات الفقهية والنحوية والتاريخية وحتى في عالم الكلام والتصوف ومنه ملامح عند الغزالي وابن حزم...

ويشير الدكتور القاسم هنا كيف اهتدى أحد كبار المتصوفة ـ ابن عربي ـ إلى وظيفة الخيال في الكشف والاختراع وهي التي لم يصل إليها نيوتن وهنري بوانكاريه

---

(1) نفس المصدر.

إلا بعد ذلك بقرون، وهذا مع التنبيه إلى أن ابن عربي هذا عاش في عصر التدهور لا عصر ازدهار الحضارة العربية وهو أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر. .

فابن عربي يرى أن الخيال «حاز درجة الحسّ والمعنى فلطّف المحسوس وكشف المعنى فكان له الاقتدار التام» وهذا يعني أن الخيال يصعد بنا من الظواهر المحسوسة إلى فكرة عامة نسميها الفرض. فإذا علمنا أن أي منهج علمي يخلو من الفروض ليس منهجاً علمياً في نظر المحدثين أدركنا مغزى كلمة ابن عربي تلك، وأسمع ما يقوله ـ رينيه لوريش ـ أحد أعلام العلوم الطبية في القرن العشرين: «إن قوانين الفكر واحدة، في كل مكان ولا يستطيع الباحث إنتاج شيء ما إلا إذا خلع على بحثه جزء من نفسه وليس هذا الجزء إلا الخيال الذي يزيد ثروة العلم ويدعمه». أما ابن عربي فيرى أنه:

«ليس للقدرة الإلهية فيما أوجدته أعظم وجوداً من الخيال. . .».

فنعمة الخيال عند الإنسان هي التي جعلته ينفرد من بين الخلائق بالقدرة على الاختراع الشعوري الذي أدى إلى ما نراه من تقدم علمي وحضاري.

كما أشار ابن عربي إلى تفاوت قوى الخيال عند البشر، ويرى ذلك سبباً في تفاوت إنتاج العلماء.. وقد عبر عن هذه الفكرة بعد ذلك أحد علماء القرن التاسع عشر...

والذي قال «إن الناس ليسوا على حدٍّ سواء في القدرة على الابتكار وعلى تخيل العلاقات بين الأشياء التي تبدو مستقلة بعضها عن بعض، لأنه يعتمد على أساسين هما المعرفة السابقة وحدّة الذهن وقدرته على الابتكار»[1].

كما أشار الدكتور القاسم إلى ما قرره ـ كود برنار ـ بعد ابن عربي بستة قرون إذ يرى أن الإنسان يبدأ بملاحظة الظواهر الطبيعية ثم يروح لتفسيرها، ولكنه لا يصل إلى هذا التفسير إلا إذا خطرت له فكرة خيالية تقوم على أساس من الحدس.

وعلم النظرة (الخيال) عند ابن عربي هو العلم المفاجئ الذي يشرق في الخيال وهو نور يهبه الله للإنسان يشرق فيه كضوء الشمس واسمع ما يقوله نيوتن في تعليل كشوفه ومخترعاته «أبحاثي وليدة العمل والتفكير الوئيد فأنا أجعل موضوع البحث نصب عيني دائماً ثم أنتظر حتى تبدو

---

(1) دراسات في الفلسفة الإسلامية ـ د. محمود قاسم.

الأشعة الأولى وتسطع شيئاً فشيئاً حتى تنقلب ضوء مفعماً كاملاً»، وهكذا تجد أن ابن عربي هذا قد اهتدى إلى أصول المنهج العلمي والذي التقى معه من علماء الغرب من جاؤوا بعده بقرون أمثال كلود برنار ونيوتن ولوريش وبوانكاريه.. فكيف يدّعي ـ رينان ـ بعد كل هذا أن عقلية العرب خرافية؟ بل إن الدكتور القاسم يذهب أبعد من هذا في نتائجه ليقول: «إذا كان الخيال هو عنصر العبقرية في العلم والفن والأدب والسياسة والحياة الروحية، وابن عربي عرف أصوله وأخذها عنه أقطاب علماء الغرب، أفلا يجوز لنا أن نذهب أبعد من ذلك فنفسر عقم المنهج اليوناني الذي اعتزّ به الغرب ورينان بصفة خاصة بأنه كان خلواً من عنصر الخيال؟»[1].

---

(1) المرجع نفسه.

الفصل الثالث

«حضارة العرب بين المنصفين والمتعصبين»

الحضارة تراث إنساني شاركت فيه شعوب الأرض وأخذ اللاحق منهم عن السابق وحاول أن يطور بقدر استطاعته، وقد نمت بوادر هذه الحضارة على ضفتي النيل وفي بلاد الرافدين وعلى شواطئ المتوسط والصين والهند، ثم انتقلت إلى الغرب ونقلها اليونان أقرب منطقة أوروبية إلى الشرق.. وقد كان العرب حلقة في سلسلة الحضارة الإنسانية وهي الحلقة الأهم لما لها من آثار تركت بصماتها على حضارة الغرب في أيامنا هذه... ولم يتبدّ هذا الدور الذي قام به العرب إلا بعد النصف الثاني من القرن التاسع عشر عام 1850 عندما جمعت المخطوطات وراح المستشرقون يدرسون حضارة العالم والعرب خاصة وتبين لكثير من العلماء المنصفين أن العرب كان لهم دور لا ينكر

بل هو من الأهمية بحيث إن ـ لوبون ـ عندما هزم العرب في معركة ربوائية، قرر أن هذه الهزيمة أدت إلى تراجع الحضارة العالمية خمسة قرون إلى الوراء.. كما صرح نفسه أن العرب لم يكونوا ناقلين للحضارة كما يحلو لبعض المتعصبين أن يصوروهم وإنما كانوا مطوِّرين ومبتكرين في كل ما نقلوه عن الأمم السابقة وخاصة اليونان الذين كانوا أسوأ وريث لحضارة من كان قبلهم[1].

وإذا كانت الحضارة هي تراث الأمة المادي والمعنوي وما خلفته من علوم وفلسفة وفنون وآداب ودين... فإن العرب وما تركوه في هذه الميادين ـ وعلى ألسنة المستشرقين الأعاجم ـ ليبدو صفحة ناصعة في مسيرة الحضارة الإنسانية.

ولكن يحلو للغربيين أن يغمطوا العرب هذا الدور الكبير الذي قاموا به عبر التاريخ فتراهم يدّعون أن حضارة الإغريق نشأت هكذا من العدم ولم تتأثر بغيرها من الحضارات ولذا أسموها بالمعجزة الإغريقية ليعلنوا أن حضارتهم اليوم أخذت من اليونان ولم تمر عبر العرب وأن

---

(1) كتب أنصفت حضارتنا ـ فريد جحا.

المتساهل من هؤلاء المستشرقين جعل العرب ـ سعاة بريد ـ في نقلهم للحضارة. وتنقل المستشرقة الألمانية سيغريد «بأنهم قالوا إن العرب قد نقلوا كنوز القدامى إلى الغرب» وتعلّق على هذه العبارة التي يحاولون فيها ادعاء وكذباً التفريط بما قد أسداه العرب لأوروبا وترى أنهم ما زادوا أن جعلوا العرب ـ كساعي بريد ـ وذلك للتقليل من قيمتهم وطمس كثير من الحقائق[1]، فتاريخ العالم عند هؤلاء الغربيين وتاريخ الآداب والعلوم والفنون يبدأ بمصر القديمة وبابل ثم توسع وتشعّب ببلاد الإغريق ماراً ببيزنطة ومنتقلاً عبر القرون الوسطى المسيحية لينتهي، بل إن البعض منهم تجاوز ذلك كله ليجعل الإغريق هم أصحاب أقدم حضارة وأن حضارة الغرب اليوم منقولة عنهم متجاوزين بذلك أي دور لشعوب الشرق وللعرب خاصة في الحضارة الإنسانية وقد ردّ ساراتون هذه الفرية بقوله:

«إن من سذاجة الأطفال الافتراض أن العلم بدأ في بلاد اليونان، فالمعجزة الإغريقية سبقتها آلاف الجهود العلمية في بلاد مصر وبلاد ما بين الرافدين والعلم اليوناني

---

(1) شمس العرب تسطع على الغرب.

كان إحياء أكثر منه اختراعاً. . بل ها هو ـ ويل ديورانت ـ صاحب قصة الحضارة يؤكد هذا المعنى بقوله: «إن قصتنا تبدأ بالشرق لأن آسيا كانت مسرحاً لأقدم مدنية معروفة لنا، ولأن تلك المدنية كونت البطانة والأساس للثقافة اليونانية والرومانية وسيدهشنا أن نعلم كم من مخترع من ألزم مخترعاتنا وكم نظام من نظمنا الاقتصادية والسياسية وما لدينا من علوم وآداب وما لنا من فلسفة ودين يرتد إلى مصر والشرق»[1].

بل هو ليخالف هؤلاء المستشرقين المتعصبين حتى في آرائهم: «والآريون لم يشيدوا صرح الحضارة بل أخذوها من مصر وبابل، إن اليونانيين لم ينشئوا الحضارة إنشاء لأن ما ورثوه لنا أكثر مما ابتدعوه، لقد كانوا الوارث المدلل المتلاف لذخيرة من الفن والعلم مضى عليها آلاف السنين وجاءت إلى مدائنهم مع صناعتي التجارة والحرب[2].

قنوات الحضارة:

ويمضي العرب منذ السنة الأخيرة من حياة الرسول ﷺ

(1) كتب أنصفت حضارتنا ـ فريد جحا.

(2) نفس المصدر.

في فتوحات تحرير الشعوب والتي امتدت حوالي القرن وحدّت خلالها دولة العرب من إسبانيا غرباً إلى حدود الصين شرقاً ومن جبال طوروس شمالاً إلى أواسط إفريقيا وبحر العرب جنوباً، وانتقلوا يغرفون من حضارات الشعوب التي اتصلوا بها ويبتكرون خلال فترة طالت سبعة قرون من القرن الثامن إلى القرن الخامس عشر ميلادي، خلّفوا خلال تلك الفترة آثاراً تناولت مختلف مناحي النشاط الإنساني من علوم وآداب وطبّ وفلسفة وتاريخ وجغرافيا[1].

عاش العرب وخلال قرنين يتصلون بالتراث اليوناني والروماني وبالتراث الهندي والفارسي، نقلوا وترجموا وعرّبوا حتى إذا ما استوعبوا ما نقلوا انكبوا ينتجون ويبدعون ويضيفون مبتكراتهم حتى عرف العالم الحضارة العربية وهي الحضارة التي كانت ثمرة تلاقح الحضارة العربية بالحضارات السابقة والتي صبغت بصبغة العروبة والإسلام وإن أنكر ذلك من أنكر.

وقد أجمع المؤرخون[2] على أن الحركة الفكرية

---

(1) عبقرية الحضارة العربية ـ ترجمة عبد الكريم محفوظ.

(2) الإسلام دين الفطرة والحرية ـ الشيخ عبد العزيز جاويش.

والنهضة العلمية دخلتا أوروبا حوالي القرن الثاني عشر عن طريقين:

1 ـ الاحتكاك الذي ظل نحو قرنين مستمراً بين أمم أوروبا والشرق الإسلامي خلال الحروب الصليبية.

2 ـ طريق المعاهد الدينيّة العلمية التي أقامها العرب في الأندلس ونابولي وجزيرة صقلية.

والمحققون من المؤرخين يرون أن من بدئ بهم تاريخ النهضة العلمية في أوروبا كروجر بيكون وغيره كانوا من الواقفين على اللغة العربية واللاتينية التي كانت تنقل إليها علوم العرب ومباحثهم في كل فن، وإذا انتحل هؤلاء أو عزي إليهم بعض الابتكارات فإن سبب ذلك ما تعمدوه غالباً من إغفال المصادر التي أخذوا عنها حتى لقد رجحوا أن روجر بيكون الراهب الانكليزي الذي يعزو إليه الفرنجة ابتكار العدسات والنظارات إنما أخذ ذلك عن الحسن بن الهيثم صاحب المباحث في الطبيعيات ولا سيما الضوء والبصريات[1].

وفي هذا يقول آرنولد توينبي المؤرخ البريطاني

(1) الإسلام دين الفطرة والحرية ـ عبد العزيز جاويش.

المنصف: «أصبحت فتوحات الصليبيين الموقوتة في سوريا وفتوحاتهم الدائمة في صقلية والأندلس على حساب دار الإسلام محطات إرسال متعددة أمكن عن طريقها نقل كنوز عالم الشرق المتحضر إلى العالم المسيحي الغربي إبان القرون الوسطى»[1]، بل هو أشار إلى روح التسامح والجو النظيف القائم على التسامح الديني، والتطلع الفكري الذي أسر فاتحي بالرمو وطليطلة وأضاف أن المجتمع الإسلامي لم يكن مجرد ناقل لهذه الأعمال التي وصلت للدارسين الغربيين في القرن 12م، وإنما انطلقوا يبتكرون علماً أصيلاً من عندهم، ومن هذه المبادئ تلقى مسيحيو القرون الوسطى في الغرب من معاصريهم من علماء المسلمين نتائج البحث في العلوم والفنون والآداب...

وها هو المؤرخ الكبير «سيديّو» في تاريخه يقول: «لقد كان المسلمون متفردين بالعلم في تلك القرون المظلمة فنشروه حيث وطئت أقدامهم وكانوا هم السبب في خروج أوروبا من الظلمات إلى النور»[2].

ولو أن الغربيين وقفوا من العقل الإنساني موقف أهل

(1) حضارة الإسلام في دراسة توينبي للتاريخ ـ فؤاد محمد الشبل.
(2) الإسلام دين الهداية ـ محمد فريد وجدي.

القرآن لما تأخرت نهضتهم إلى وقت متأخر في الوقت الذي فتحت أمامهم كنوز علوم العرب والمسلمين عن طريق تلك القنوات الكثيرة، ولكن كان لسلطان رجال الدين واسترقاقهم لعقول المسيحيين أثر كبير في ذلك التراجع. . . وهكذا ومنذ القرن العاشر بدأ أول احتكاك أوروبا بالحضارة العربية حين بدأت تهتم بالكتب العلمية والطبيعية والفلسفية وزاد الاحتكاك بالحروب الصليبية والتي كانت نتائجها العلمية لهم كبيرة إذ نقلوا وسرقوا كنوز العرب العلمية، إلى جانب مركز آخر للنقل في الأندلس بعد أن غدت طليطلة وغيرها من المدن موارد لطلاب العلم والمعرفة.

ومما زاد هذا الاتصال حدة ونشاطاً أن عمل عليه بعض ملوك أوروبا من مثل فريدريك الثاني امبراطور ألمانيا (1194 ـ 1250) م وألفونس العاشر ملك قشتالة (1152 ـ 1284) وحرصوا على ترجمة الكتب التي تحوي نتاج العقل العربي وأسسوا مراكز ثقافية استقدموا لها أساتذة عرب[1].

وقد كثر النقل عن العرب إلى اللاتينية في مواد العلوم الطبيعية والفلسفة، ثم أخذت أوروبا تعنى باللغة العربية

(1) الإسلام دين الفطرة ـ جاويش.

مدفوعة بدوافع دينية وسياسية وتجارية ورافق ذلك في إيطاليا بدءاً من القرن الخامس عشر ميلادي ازدهار التجارة في مدنها والبدء بحركة التبشير إلى أن ظهرت حركة الاستشراق في القرن التاسع عشر...

ونقل سيديّو في تاريخه العام عن همبولد[1] بأن العرب «كانوا مستعدين بما يقضي بالعجب ليمثلوا دور الوسيط بين الأمم القاطنة فيما بين نهر الفرات ونهر الوادي الكبير، والعرب ـ على عكس بني إسرائيل ذوي التعصب ـ كانوا راغبين في مصاهرة الأمم المغلوبة من غير جحود لخلقهم القومي»، وقد اتفق للعرب في العلوم الطبيعية والرياضة والفلك ما لم يهيأ لغيرهم إذ رأى سيديّو وجوب عدّ العرب المؤسسين الحقيقيين للعلوم الطبيعية بمعناها الحديث. وهكذا يتجلى أثر العرب في جميع فروع الحضارة الأوروبية وشهدت علومهم ومعارفهم على ما كان لهم من النشاط العجيب وبما كان لهم من أثر في أوروبا النصرانية وكيف حملوا تلك العلوم ونقلوها إلى أبناء العالم بمعزل عن الجنس والدين واللون بكل حرية وتسامح واحترام لعقل الإنسان وتفكيره مما حدا بالمستعرب الإسباني بالنثيا

(1) كتب أنصفت حضارتنا، ـ فريد جحا.

إلى القول: «إن قيام التأليف العلمي في أوروبا في الطب والرياضيات مرجعه إلى العرب».

المدنية والرفاهية في حضارة العرب:

سر في براح الأرض وانظر ثمة ما تفخر به العرب في طول البلاد وعرضها ففي كل رابية لهم أثر ينبئ عن حضارة كانت لهم، وعلى صفحة الكون بصمات علمائهم وحتى في لغة هؤلاء القوم مئات الكلمات التي عرّبوها عن أجدادنا يوم اتصلوا بحضارتنا عبر قنوات كثيرة فإن اعترف بعضهم بذلك أمثال سيديّو ولوسيان لوركير الفرنسي، وبريس دافين، وماكس برشم والمؤرخ البريطاني بتلر، ود. غوستاف لوبون والاسباني بلاثيوس.. لئن اعترفوا بحضارة العرب في كتب وضعوها فذلك منتهى العدل والإنصاف... وإن رفض وأنكر البعض ذلك فما رفضهم بقاطع رأياً أننا لم يكن لنا حضارة لأن الشواهد الناطقة بذلك أكثر من أن تحصى وأكبر من أن يحيط بها عالم، وما إنكار هؤلاء إلا من تعصبهم الشديد وتعاميهم عن الحق وانخداعهم ببريق حضارة الآيدز والصاروخ، حضارة لم تنشر في العالم رحمة ولا سلاماً ولم تدع البشر فوق هذا الكوكب إلا وحوشاً يفتك بعضهم ببعض وشتان بين هذه

الحضارة وحضارة العرب وما حققته في المجتمع الإنساني عامة.

أجِلْ الطرف بعيداً حيث نشرت حضارة العرب ظلالها وعلومها لتشهد بنفسك الدليل عليها وباعتراف أساتذة الغرب أنفسهم وقد جاء الدليل هذه المرة من المستشرقة الألمانية المنصفة سيغريد هونكة فقد كانت منصفة للعرب وغيرهم من الأمم التي شاركت في حضارة العالم ولم تأبه لرد أبناء جنسها عليها وعتابهم القاسي لها، قد أرادت أن تقول الحقيقة كما عرفتها غير آبهة بكل التحديات فأنت معها في كتابها ـ شمس العرب تسطع على الغرب ـ تعبر في دروب ومداخل قلّ من يعرّج عليها من علمائنا بهذه الصراحة والوضوح وعرفان الجميل، مما ينبئك أن في بعض الأمم المتحضرة اليوم من لم يخدع بما فعله العرب ونقلوه من حضارة إلى الغرب، بل هي سخرت من أولئك الذين رأوا أن العرب كانوا ناقلي حضارة أي سعاة بريد وأثبتت بكتابها ذلك ردّ هذه المقولة ودحض ذلك الافتراء الكاذب...

وإذا كانت الحضارة الإنسانية ميراث أممي إنساني

يستقي اللاحق من السابق علومه ويستفيد الآخر من الأول ويبني على أثره ويطور ويبتكر، فإن التاريخ وحده هو الذي يعرف الحقيقة فلا يغمط أحداً حقه فإن أبى ذلك أحياناً، فالمستشرقة الاألمانية تقول في كتابها العظيم: تلك آثارهم تدل عليهم فاسألوا بعدهم عن الآثار. . .

وأنت تقلب صفحات التاريخ لا تعدم أن تسمع أخبار تجارة العرب منذ القرن التاسع وسفنهم التي تجوب عرض البحار والتي كان ينتظرها الغرب بإعجاب ودهشة لما تحمله من توابل ونارنج وبرقوق وأرز وبن وسكر وليمون وكمثرى، وما كان فيها من مواد الرفاهية من ملابس وأقمشة كالقطن والحرير والساتان والقماش الشفاف والدمقس الفاخر ذي الألوان المتعددة مما أوردته وذكرته المستشرقة الألمانية مما يعطيك صورة عن حياة التنعم والغنى والثراء وبحبوحة العيش وجماله التي كان عليها العرب، والتي كان الغرب يتطلع إليها بشغف بين الحين والحين، فقد كانت سفن العرب تغزو أوروبا عبر صقلية وجنوا والبندقية في إيطاليا فتملأ الأسواق الأوروبية بالبضائع العربية من التوابل والنسيج

والستائر العربية. . تقول سيغريد هوندكة[1]:

«وبانتشار الإسلام أصبح البحر حدّاً فاصلاً بين عالمين فجاءت النهضة لتمد البحر من جديد بجسر مكن بلاد الشرق من نقل كنوزه وغزو بلاد الغرب الجائعة».

وقد بلغ من إنصافها العرب أن عنْونت الفصل الثاني من كتابها بـ«أوروبا الجائعة في ظل التجارة العالمية». واستمع إليها تصف التاجر الأوروبي وطوافه ببلاد العرب والإسلام ثم عجبه الشديد مما يرى «كان التاجر بدوره من البندقية أو جنوا يمضي عادة مدة لا تقل عن ستة شهور يعيش خلالها في المحيط العربي ويتنفس في أجواء حضارة العالم العربي الساحرة، وإذا عاد شحن معه من قطن سوريا ومن زجاج صور وفخارها والتوابل والقرفة والكافور والبخور وخشب الصندل من مراكز التجارة المصرية» بل إنها لتصرح بأن «أساس كل رخاء سابق في بلاد الغرب قد نبت في سلال التوابل العربية ونما معها» وبانطفائها انطفأت التجارة الداخلية فترة فأفلس التاجر (الأوروبي) وذاب الذهب المتداول. . وغاض الغرب في أعماق الهاوية. . .

---

(1) شمس العرب تسطع على الغرب ـ د. سيغريد هوندكة.

وقد بلغ من حبّ بعض بلدان الغرب لصداقة العرب واستقبال سفنها التجارية المحملة أنهم لم يبالوا في تسليحهم بسفن حربية ضد الحملات الصليبية مقابل استمرار تلك التجارة. تقول سيغريد هونكة: «فمدينة جنوا بلغت من صداقتها المشينة مع المسلمين حين راحت تلبي سلطان مراكش فتسلح له 18 سفينة حربية لمساعدته ضد الصليبيين القراصنة»[1] وهكذا مُزِّق الحصار الذي فرضته أوروبا المسيحية ضد الإسلام مرات، فبواسطة الجسور التي أقامتها السفن الإيطالية وبواسطة الحجاج والتجار والسياح أثر العرب بغناهم المادي في كل مجالات الحياة اليومية لأوروبا.

فالمدنية والرفاهية التي نقلها العرب واحتكاكهم بالغرب، لم تكن لتوصف بسبب تسامح المسلمين وعدم تفرقتهم بين جنس وجنس وعدم وضع حدود لغناهم بل ورفاهيتهم... كل ذلك جعل الغرب يتطلع بعين المحب إلى هذه الحضارة ذات المدنية والثراء الواسع والحمامات الساخنة والتوابل العجيبة والأطعمة اللذيذة بحيث رأوا عالماً جديداً ما كانوا ليحلموا به في أوروبا التي حاصرتها

---

(1) شمس العرب تسطع على الغرب ـ د. سيغريد هونكة.

الكنيسة فاعتبرت الاستحمام وتعرية الجسم معصية لله، فحرموا على واحدهم أن يستحم أكثر من مرة أو مرتين.

نقل الطرطوشي أثناء تجواله في بلاد الفرنجة ما رآه مما اقشعر له بدنه من أهل الغرب حيث لم يجد أكثر قذارة منهم فهم «لا يستحمون إلا مرة أو مرتين في السنة وبالماء البارد»، كل هذا الوقت الذي كان في بغداد وحدها في القرن العاشر آلاف الحمامات الساخنة والتي يجد فيها المرء الراحة التامة والخدمة الرائعة ويرى من مظاهر الحضارة ما لم يخطر له على بال، ولا ريب أن هؤلاء العرب الذين كانوا على هذه الدرجة من المدنية والنظافة والغنى والثراء والتجارة التي تعبر البحار لم يكونوا ليبلغوا ذلك لو لم تكن لهم حضارة قد قطعت خطاً كبيرة في المدنية والرقي...

دواعي الحضارة وأخلاق العرب:

أدى الفتح العربي للعالم القديم خلال القرنين السابع والثامن إلى نتيجتين هامتين أولاهما إنشاء دولة جديدة مترامية الأطراف في حوض المتوسط، وهكذا سيطر العرب وخلال قرن من الزمن على منطقة تمتد من الصين شرقاً إلى إسبانيا غرباً ومن جبال طوروس شمالاً إلى بلاد العرب

جنوباً في دولة تضاهي امبراطورية روما في أوجها، وقد تحولت هذه الدولة إلى مملكة سياسية تشتمل على دول منفصلة ولكن كانت لها هوية تجمعها هي الإسلام والعقيدة التي ألغت الفوارق العرقية والقبلية، وضمن هذا الإطار الإسلامي العريض سمح لكل الأجناس والألوان أن تعلو وتفكر وتخترع وتبدي فكرها وحضارتها إذ صار العلم والمعرفة والتقوى مقياس شرف الإنسان وقدره، فخلقوا حضارة عالمية كما يقول بادو[1] ويشدد بادو على كلمة ـ خلقوا حضارة ـ ولم يفرضوا حضارة عن طريق الغزو. . . «لقد برزت تلك الحضارة إلى الوجود ضمن الدولة الجديدة وأخذت هوية وطابع النظام الجديد الذي نجم عن فتوحات الإسلام، لدى انتشاره بين الشعوب الغريبة واستطاعوا صهر كل مقومات الشعوب وتقاليدها من أدب قديم وفكر هيليني ومؤسسات بيزنطية وقانون روماني ودراسات من فارس في بوتقة واحدة هي بوتقة الإسلام وصنعوا منه حضارة طوَّروا وأبدعوا فيها حتى سحروا أعين الناس في أوروبا» ويقول بادو ولم تكن حضارتهم صورة

(1) عبقرية الحضارة العربية (مقال لجون س. بادو) دور العرب في الحضارة الإنسانية عدد من المؤلفين ـ ترجمة عبد الكريم محفوض.

مركبة ببساطة من نتف وقطع حضارات مختلفة وإنما كانت نمطاً جديداً متميزاً صهر كل تلك الألوان والحضارات والثقافات بروح جديدة، وعبّر عن نظام اجتماعي جديد.

وقد نشأت تلك الحضارة بسبب حبّ العرب والمسلمين للعلم والمعرفة ونتيجة التسامح الديني الذي تحلّى به المسلمون مع أبناء البلدان المفتوحة، وبسبب من عدم التدخل في الشؤون الداخلية لتلك البلدان المفتوحة، ولم يكن من أهدافهم الحكم والاستيلاء على الشعوب وإنما كان الهدف هو نشر رسالة السماء وما عدا ذلك فكل بلد يحكم نفسه بأبنائه حيث ظل موظفو كل بلد في أمكنتهم، وسبب رابع لتلك الحضارة هو البذل والسخاء من العرب والمسلمين في سبيل البحث عن المعارف والمخطوطات وقد وصل المأمون في ذلك إلى أقصى غاية في تكريم العلم والعلماء وترجمة علوم الأمم السابقة.

ويروح ـ بادو ـ ليقارن بين حضارة العرب وأثرها في العالم وبين حضارة المغول مثلاً وما تركته غزواتهم من نتائج مختلفة لم تنبثق عنها أية حضارة إذ عندما انحسر

مدهم لم يتركوا وراءهم إلا التدمير والتخريب[1]، بينما راح العرب يوطدون بعقيدتهم نظاماً اجتماعياً وحضارياً وثقافياً جديداً في امبراطوريتهم الخالدة والتي تجدد نفسها بنفسها نظراً للترابط الوثيق بين شعوبها على اختلاف لغاتهم ونظراً لدور اللغة العربية التي راحت تكتب بها كل الشعوب وصار لها من القوة والغلبة ما جعل الغرب ينقل علومها وحضارة أبنائها إلى اللاتينية.

ومن أعظم أخلاق هؤلاء العرب الفاتحين أنهم استجابوا لحضارة الشعوب والبلدان التي افتتحوها فلما تراخت الفتوحات جلسوا كالتلاميذ عند أقدام الشعوب التي حرروها ليستفيدوا من علومهم، وكم برهنوا على أنهم طلاب مولعون باكتساب العلم كما أشار فيليب حتّي: «أخلاق رفيعة عالية تخلّق بها هؤلاء العرب وهم يتتلمذون على علماء كانوا قبل قليل من ألد أعدائهم، نفوسٌ تهوى وتعشق الرقي والمدنية وتتطلع إلى مزيد من العلوم لأجل الناس جميعاً ويكفي أن تعرف أن معظم أطباء الخلفاء العباسيين كانوا من النصارى وأن ثابت بن قرة الحراني

---

(1) عبقرية الحضارة العربية ـ ترجمة عبد الكريم محفوض.

الذي قدمه محمد بن موسى شاكر إلى الخليفة المعتضد كان من الصابئة[1].

وهكذا بدأت حركة تبادل الثقافات وراحت الشعوب المغلوبة تشارك وتتمثل ثقافات بعضها بعضاً ويتلاقى الجميع في عاصمة الدولة مما خلق تلك الحضارة الرائعة، بل إن هذا الاحتكاك بالغرب أدى بكثير من هؤلاء إلى اعتناق الإسلام وإلى تزاوج منهم على نطاق واسع. وهكذا أدى ذلك التمازج إلى خلق هذه الحضارة ذات الهوية الأصلية، كان العرب أصلاً لها وكان الإسلام هو الذي صبغها بالصبغة العالمية فكراً وديناً وثقافة يقول بادو: «إن الاستيلاء على ما خلفه الإغريق والبيزنطيين والسريان والفرس من أجل بناء حضارتهم الجديدة قد تم كل ذلك تحت الرقابة الإسلامية وكان المقصود منه خدمة الأغراض الإسلامية[2]».

وقد كان أبرز تلك الأغراض تحرير الإنسان من عبودية البشر وانتشاله من براثن الجهل ونشر روح المعارف الحقة وخلق حضارة تلائم الجنس البشري تتفاعل فيها كل شعوب

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه.

الأرض على اختلاف أجناسها وألوانها وعقائدها، ويلتقي هؤلاء جميعاً على مبادئ سامية خالدة وأخلاق نبيلة تكرم الإنسان وتحترمه وتعطي لكل ذي حقّ حقه.. وكان من نتائج ذلك أن سارعت الشعوب تتخلى عن عقائدها وترغب في عقيدة الإسلام وتبني مجتمعاً إسلامياً جديداً عقيدته الثابتة الإسلام وسداه ولحمته علوم ومعارف وحضارة عظيمة نقلت إلى شعوب الأرض بلا منٍّ ولا استئثار وتلك هي الرسالة الخالدة والحضارة الإنسانية الكريمة.

مظاهر الحضارة في العلوم:

بعد معركة طالاس التي انتصر فيها الجيش الإسلامي سنة 751م انفتحت أبواب آسيا الوسطى أمام المسلمين والقصة تقول إن أسرى صينيين قد أدخلوا صناعة الورق إلى سمرقند التي كانت محاطة بحقول شاسعة من مزارع الكتان، وأن أخاً لجعفر البرمكي أنشأ أول مصنع للورق في بغداد سنة 794م وكان هو الوالي على سمرقند من قبل العباسيين[1].

---

(1) كتاب الإسلام في مجده الأول ـ لموريس لومبار ـ ترجمة إسماعيل العربي ـ الجزائر.

وقد أدرك المنصور (754 ـ 775) قيمة هذه المادة الجديدة للكتابة في وزاراته ومجامعه العلمية، ومن عرب صقلية والأندلس تعرفت بلاد الغرب على هذه المادة التي هي إحدى دعائم الثقافة[1].

وهكذا انتشر استعمال الورق خلال القرنين التاسع والعاشر الميلادي في جميع بلدان العالم الإسلامي، في سوريا وصقلية، وحتى في مصر والتي ستتخلى عن استعمال ورق البردي، وننظر فإذا الوثائق الغربية الأولى المكتوبة على الورق والمحفوظة يرجع تاريخها إلى القرن 12 م وهذا الورق لم يكن مستورداً ومنتجاً في مصانع الأندلس وصقلية وبيزنطة نفسها كانت تستورد الورق من سوريا أو مصر[2] كان لانتشار صناعة الورق أثر عظيم في توسع مجالات الثقافة وانتشار العلوم والمعارف مما كان دعماً كبيراً للحضارة العربية أعطاها مدى بعيداً عملت فيه على ترجمة الكتب والتأليف والنشر. . .

---

(1) شمس العرب تسطع على الغرب، ـ سيغريد هونكة. منشورات المكتب التجاري ـ بيروت 1964 الطبعة الأولى.

(2) كتاب الإسلام في مجده الأول ـ لموريس لومبار ـ ترجمة إسماعيل العربي ـ الجزائر 1984 الطبعة الأولى.

ولقد عجب أحد أباطرة بيزنطة عندما رأى ورود حقّ شراء مخطوطات إغريقية بين الشروط التي فرضها بربري منتصر، كان هذا البربري الذي يهفو إلى العلم قائداً كبيراً، لقد حصل الخلفاء العرب بهذا الشكل على الكتب الإغريقية التي تعالج العلوم والرياضيات والطب، ولم يكتفوا بالمؤلفات الإغريقية بل إن المنصور عام 733م من أمر بترجمة مؤلفات فلكية هندية[1].

وفي عام 830م باشر العرب بعملية الترجمة الضخمة وكانت إلى ذلك الوقت تقوم بمبادرات فردية ونهضت الترجمة على يد الخليفة المأمون والذي أمر بإنشاء دار الحكمة ـ تحت إشراف حنين بن إسحاق أكبر مترجمي الكتب في هذا العصر. . .

وسأعرض الجوانب من مظاهر حضارة العرب خاصة في ميدان الفلك والطب.

ففي مجال الفلك فقد وصل موسى بن شاكر إلى قصر المأمون وهو الذي صرف عمره كله في الفلك

(1) كتب أنصفت حضارتنا ـ فريد جحا.

والرياضيات، كما كان لثابت بن قره والبتّالي الذائع الصيت في القرون الوسطى فضل كير في ميدان الفلك.

وقد أنشأ المأمون مرصدين في دمشق وبغداد، كما كان لأولاد موسى الثلاثة فضل كبير في الفلك ورصد النجوم والهندسة حتى قال البيروني فيهم بعد مرور 150 سنة: «إني أرى أنه بوسع المرء أن يعتمد على ما قام به أبناء موسى بن شاكر من أبحاث وملاحظات كانوا الوحيدين في عصرهم والذين برعوا في أبحاثهم الفلكية»[1].

وقد سعى محمد بن موسى وأخوه أحمد إلى إقامة مرصد آخر على جسر الفرات واستخدموا آلات دقيقة جداً وحساسة تدفع بالإعجاب والدهشة، فعندما زار الطبيب ابن ريان الطبري مرصدهما في القصر قال وقد أخذه العجب «في مرصد سامراء رأيت آلة بناها الأخوان محمد وأحمد ابنا موسى وهي ذات شكل دائري تحمل صور النجوم. . . وتديرها قوة مائية، وكان كلما غاب نجم في قبة السماء اختفت صورته في اللحظة ذاتها من الآلة وإذا ما ظهر نجم

(1) شمس العرب تسطع على الغرب ـ د. سيغريد هونكة.

في قبة السماء ظهرت صورته في الخط الأقصى من الآلة»[1].

فأي تقدم ورقي هذا الذي كان عليه هؤلاء والغرب غارق في عصور الظلمات.

وقد قام هؤلاء الأبناء الثلاثة بإيفاد الرسل وعلى نفقتهم الخاصة إلى الامبراطورية البيزنطية بحثاً عن المخطوطات الفلكية والرياضية والطبية وكانوا يدفعون الأموال الطائلة لشراء الآثار اليونانية وحملها إلى الدار التي قدّمها إليهم المتوكل على مقربة من قصره بسامراء حيث كان يعمل فريق من المترجمين فيها تماماً مثلما كان الأمر زمن المأمون[2].

على أن هؤلاء العلماء كانوا يرون تعلم تلك العلوم واجباً دينياً ووطنياً وإنسانياً يحملهم على ذلك آيات الكتاب المقدس التي تدعو إلى طلب العلم والاعتراف منه ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ والتي تدعو إلى النظر في ملكوت السموات والأرض أو دراسة النبات والحيوان والحياة على الأرض،

(1) نفس المصدر.

(2) نفس المصدر.

ونسمع هنا كلمة رائعة لكبار الفلكيين البتّاني: «إن علم النجوم هو علم يتوجب على كل امرئ أن يعلمه كما يجب على المؤمن أن يلمّ بأمور الدين وقوانينه لأن علم الفلك يوصل إلى برهان وجود الله وإلى معرفة عظمته الهائلة وحكمته السامية وكمال خلقه[1].

أما في ميدان الطب فقد كان لهم الفضل الأكبر على الإنسانية في تخفيف آلامها ومداواة أمراضها ويكفي فخراً ما ذكرته المستشرقة الألمانية سيغريد هونكه بأنه وقبل 600 عام كان لكلية الطب الباريسية أصغر مكتبة في العالم لا تحتوي إلا على مؤلف واحد وهذا المؤلف كان لعربي كبير هو أبو بكر الرازي».

ويقول المستعرب ريسلر «شغل العرب المكان الأول في الطب وبقوا سادة العالم فيه أكثر من خمسة قرون» كما أجمع جميع رحالة العصور الوسطى عن إعجابهم بمؤسسات الاستشفاء الموجودة في الشرق. وها هو كتاب ابن سينا ـ القانون في الطب ـ يظل يدرس قروناً عديدة في جامعات الغرب يقول د. سامي. ك حمارنة:

---

(1) نفس المصدر.

«القانون في الطب بمثابة مخطوط ذي مليون كلمة يوجز المعارف الطبية إلى أيام الكاتب. . . ولقد تقبل العالم الطبي الإسلامي القانون كمرجع وحيد حتى القرن التاسع عشر كما استخدمته الحضارة الغربية لمدة تزيد عن خمسمائة عام»[1].

وفي مجال الأمانة العامة واحترام شرف المهنة يقول د. حمارنة:

«عرض الخليفة أن يكافئ حنيناً (بن إسماعيل العبادي) مكافأة سخية إن هو أحضر له سمّاً يسمح للخليفة بدسه خلسة لأحد خصومه للإجهاز عليه. فأجابه حنين: لقد تعلمت يا مولاي تركيب العقاقير المفيدة فقط وإني على ثقة بأن هذا هو كل ما يطلبه مني أمير المؤمنين، وإذا أرادني أن أحضر له السموم فما عليه إلا أن يتلطف ويأذن لي بالزمن المطلوب للذهاب وتعلمه أيضاً». فاحتج الخليفة قائلاً بأنه في حاجة للسم حالاً. ولكن حنيناً كان كلما زاد الخليفة من ضغطه عليه زاد بدوره إصراراً على عدم خيانة ضميره وأوضح للخليفة بأن الطبيب قد أقسم على عدم تقديم

---

(1) عبقرية الحضارة العربية (عدد من المؤلفين) ترجمة عبد الكريم محفوظ.

الدواء المؤذي أو المميت، وأن شرف المهنة يفرض على ممتهني الطب أن يفعلوا جل ما يستطيعون لمساعدة مرضاهم وليس لإيذائهم، وصرح حنين حتى وهو في غياهب السجن وعرضة للإعدام جزاء على إحجامه: «إنني راغب بالموت ومطمئن إلى أن الله سوف يجزيني على براءتي يوم الحساب» وأخيراً أفرج عنه المتوكل وأوضح له أنه كان يختبر شرف حنين واستقامته ثم رفع من مقام حنين وأجزل له العطاء[1].

وإذا كان هؤلاء الأطباء قد ترجموا كتب اليونان وأطباءهم وعرفوا جالينوس وأبقراط أبا الطب فإنهم لم يكونوا ينقلون ما تعلموه نقلاً كما هو بل كانوا لا يعتمدون من هذه العلوم إلا كل ما وافق التجربة العملية المنظورة، ولهذا مع احترامهم لأطباء الأمم الأخرى فإن ذلك لم يمنعهم من إبداء دهشتهم من الخلاف والتباين الواضح بين ما قرؤوه وما جربوه ورأوه عملياً، فقد نقلت سيغريد هونكة عن طبيب كان من أصفياء صلاح الدين قوله: «قسماً بجالينوس وباحترامه العظيم فإن ما نراه بأعيننا أصدق بكثير مما نقرؤه».

---

(1) نفس المصدر السابق.

وهذا ما صرحت به نفس الكاتبة في كتابها الموسوعي إذ ذكرت:

«لقد امتازت كتب العرب على أنواعها المختلفة من كتب مختصرة وموسوعات ضخمة بأنها جمعت بين دفتيها بكل معارف العصور السابقة والعصور الحاضرة منظمة كأحسن ما يكون التنظيم، ومتسلسلة كأحسن ما يكون التسلسل ومشروحة في تفصيل جعل منها ثمرة سائغة في متناول الجميع. لقد امتازت هذه الكتب بروح علمي أصيل وعبرت عن موهبة منهجية نظامية رائعة وعبقرية خلاقة، هذه هي حضارة العرب وإن جحدها الجاحدون وأنكروا فضلها تعصباً ذميماً منهم أو تجاهلاً لأبنائها أو حقداً أعمى، هذه هي حضارتنا بكل أخلاقها ومثلها، فهي وإن احتلت فعلاً جزء من أوروبا في الأندلس فهي لم تقض على المسيحية التي يزعمون أن شارل مارتل قد حماها في معركة بواتيه، ولم يقضوا على المدنية الغربية التي لم يكن لها وجود يومئذ، لقد حولوا الأندلس خلال مائتي عام حكموها من بلد جدب فقير إلى بلد عظيم مثقف يحترم العلم والفن والأدب، قدّم لأوروبا سبل الحضارة وقادها

في طريق النور.. وأكبر دليل على أن الإسلام هو سبب حضارة الغرب اليوم هو أن الغرب بقي في تأخره ثقافياً واقتصادياً طوال الفترة التي عزل فيها نفسه عن الإسلام ولم يواجهه، ولم يبدأ ازدهاره إلا حين بدأ احتكاكه بالغرب سياسياً وعلمياً وتجارياً، واستيقظ الفكر الأوروبي على قدوم العلوم والآداب والفنون العربية من سباته الذي دام قروناً ليصبح أكثر غنًى وثراء...

ولكن هذه الحضارة لتجد عزاءها الكبير في أولئك العلماء المنصفين الذين أوقفوا أنفسهم على كشف الحقائق وإظهار ما قد تعمّد مواطنوهم إخفاءه أو تعميته أو كراهيته من أحقيّة دور العرب والمسلمين وأهمية دورهم وحضارتهم في مسيرة الحضارة الإنسانية.

الفصل الرابع

«مزالق الحضارة الغربية»

أدركنا في الفصل الماضي أن الحضارة قاسم مشترك بين الأمم والشعوب جميعاً، لكل منها حظ في دفع عجلتها أو ركودها بمقدار ما يمتد الزمن بهذا الشعب أو ذاك. . وأدركنا أنه لا يستطيع أي شعب أن يسبح ضد تيارها وإلاّ كانت النتيجة زوال تلك الحضارة وخراب هاتيك الممالك.

وعرفنا كذلك أن الأمة العربية كان لها دور كبير في إنقاذ بقايا حضارة اليونان من التآكل والتعفن ونهضت ـ وعلى أكتاف أبنائها مترجمين ومؤلفين، وقادتها المأمون والمتوكل والرشيد، وعملت على تطور الإنسان على الأرض، وكان الدين الفاعل الأعظم والمفجر الأكبر إذ وجّه طاقة أبناء الأمة العربية إلى احتضان شعوب الأرض

بكافة حضاراتها وثقافاتها، كي تصبّ جميعها في بحر الحضارة العربية والإسلامية، وكانت قبلاً قد أعطت كل تلك الشعوب ـ من سكان البلدان المفتوحة ـ الحرية التامة في البحث والدراسة، ونشرت العدالة والمساواة فلا فرق بين عربي وأعجمي ولا أبيض وأسود إلا بالتقوى.

ومن ثَمَّ تمحورت كل تلك القوى البشرية الممتدة عبر المملكة الإسلامية المترامية الأطراف وتلاقت على غاية واحدة هي نشر رسالة السماء والعمل على رقي الإنسان فوق هذه البسيطة وإتمام معنى الخلافة لهذا الإنسان في الأرض، وإطلاق يده وفكره في جوانب الكون والسعي إلى كل ما فيه خير الإنسانية اتباعاً لكتاب الله الذي يدعو إلى العلم والعمل والرقيّ العلمي، وتحضير الإنسان والعمل على إسعاده.

وشهد التاريخ ـ وقد كتب ـ حضارة عربية إسلامية باهرة تفردت بسمات خالدة لم تشاركها حضارة أخرى، بل بدت حضارة اليونان والرومان كالسراب أمامها وقد صدق في هاتين الحضارتين وحضارة الإسلام قول المصطفى ﷺ: «ربّ مبلَّغٍ أوعى من سامع» فإذا علمتَ أن المسلمين أنفسهم كانوا يضعون في شروط الصلح مع أعدائهم شراء

مخطوطات وعلمت أنهم كانوا يدخلون أقبية اليونانيين ـ بعد أن يدفعوا أثماناً باهظة ـ ويستخرجوا تلك الكنوز التي كاد يبليها الدهر[1]، وأنهم ترجموها وبنوا عليها أضعاف ما عرفوه منها. إذا أدركت ذلك عرفت أنه في نهر الحضارة قد صبّت جداول كثيرة كان منها الكبير والصغير، وأن الحضارة العربية كانت من أكبر هذه الروافد وأغزرها بحيث استطاعت وهي تصب في بحر الحضارة الإنسانية الواسع، أن تصبح تلك الحضارة بقيم ومبادئ وعلوم وعقائد ونظم كانت نسيجاً وحدها حتى يومنا هذا...

كانت تلك حضارتنا وما تركته من آثار فماذا في حضارة أبناء الغرب في القرن العشرين، قرن الذرة والكمبيوتر، تعال معي لأطلعك على هذه الحضارة والتي ما زال أهلها ينادون بتميُّزها وتفردها من بين الحضارات، لترى الفارق بين حضارة العرب والتي ما زال أكثر المنصفين منهم يعترفون بها وبين حضارة الغرب التي أفلست أو كادت وهي تنحدر في واد صار من الصعب عليها الإمساك بزمامها...

بعث السيد المسيح عليه السلام إلى أُمة عمّها البغي

(1) شمس العرب تسطع على الغرب ـ د. سيغريد هوندكة.

والظلم والتعدي محاولاً أن يطمْئن من جبروتها ويخفف من غلواء بأسها، وكذلك الامم كلما عثرت في طريقها أو حادت عن جادة الحق رحمها الله بأحد أنبيائه... ولما أعلن اليهود كفرهم وعصيانهم وتمردهم وتجبروا وطغوا عملوا على التآمر مع الرومان ضد السيد المسيح فرفعه الله إليه.

وانقضت عقود وعقود تراخى فيها الدين ودبّ فيه الوهن وانحرفت النصرانية بأحبارها ورهبانها، ولما صار دين الدولة الرومانية على يد قسطنطين وُسِم الإنسان بالخطيئة وعلاه الذلّ والصغار... ومع أن النصرانية في الأصل جاءت لتكريم الإنسان وانتشاله إلا أن خطيئة آدم كما تصورها سدنة الكنيسة قد دمغت جنس الإنسان كله، حتى كان يسوع هو المخلص والابن والأب وروح القدس... فكفّر بنفسه عن هذه الخطيئة ـ في رأيهم ـ وما كان له أن يفعل ذلك لو لم يحمله هؤلاء المدعون ما لم يكن. إذ العقل الإنساني يرفض أن يصدق أن إنساناً يملك الحكم والسلطان والعفو يصلب نفسه، وبيده الحل الأمثل وهو العفو... فلماذا يعذب نفسه ويُصلب ولا يعفو...

وبتولّي قسطنطين سنة 305م دخلت الوثنية إلى

النصرانية والتي صارت دين الدولة، وعلى يد هؤلاء الموظفين الذين لم يكونوا يعتقدون النصرانية بصدق.

ولم تستطع النصرانية الملقحة بالوثنية الجديدة أن تنتزع الرومان من الحياة البوهيمية التي كانوا عليها ومن الظلم والفجور الذي كان عليه الناس وحتى الحاكم نفسه... ولما عجزت الكنيسة أن تخط طريقها لخلاص الناس في ذلك الزمان، ولم يمكنها أن تسيّر الدولة الرومانية عبر هذه المبادئ الجديدة لسيطرة الشهوات والبغي والفجور، إذ كانت الامبراطورية الرومانية قد قطعت شوط ازدهار حضارتها وبدأت تنحرف نحو النهاية المنتظرة... لكل هذا لم يجد هؤلاء الرهبان ورجال الكنيسة إلا اللجوء إلى الرهبانية والاعتزال، وكان أن عملت هذه الرهبانية على كبت الميول الفطرية في البشر ودفن الطاقات البشرية، بل وألجأت الإنسان إلى الجمود والتردي بدلاً من أن يصعد على سلم الحضارة، وكان مصير حضارة الرومان والإنسان عامة ما وصفه ـ درابر ـ الأميركي في كتابه «الدين والعلم»[1].

ولما بلغت الدولة الرومانية أوجها، والحضارة أقصى

---

(1) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ـ العلامة أبو الحسن الندوي.

درجاتها هبطت بفساد الأخلاق والانحطاط في الدين إلى أسفل الدركات، وبطر الرومان معيشتهم وأخلدوا إلى الأرض، واستهتروا وصارت الحياة عندهم فرصة للتمتع واللهو واللذة... وكان نظام روما المدني يشف عن أبّهة الملك ولكنه كان طلاء خداعاً كالذي تراه في حضارة اليونان في عهد انحطاطها».

«ولما تراخت عرى الأخلاق في صيانة الآداب في المجتمع الروماني إلى هذا الحدّ، اندفع تيار من العري والفواحش وجموح الشهوات فأصبحت المسارح مظاهر للخلاعة والتبرج الممقوت والعري المشين، وراجت مهنة المومسات وانجذبت إليها نساء البيوتات وشاعت المقالات الخليعة والقصص الماجنة...»[1].

وقد انتهى كل ذلك إلى صراع أليم داخل كيان البشرية ودمار أصاب الحياة الاجتماعية.

جمود الكنيسة في العصور الوسطى:

وإذا كان الإنسان هو صانع الحضارة عبر التاريخ

---

(1) كتاب الحجاب للأستاذ أبو الأعلى المودودي.

وكانت الكنيسة خلال العصور الوسطى وعهود الظلمات قد اتخذت موقفاً عزل فيه العقل عن أن يشارك أو يناقش أو يحلل، فإنها بهذا دفعت به بعيد عصر النهضة وقبله، وبعد أن استيقظت العقول من سباتها، دفعت به إلى أن يضع المسيحية وعقائدها على منصة التحليل والدراسة، فكان أن رفضت تلك العقول ذلك الجمود الفكري الذي وسم الحياة الاجتماعية بصبغة الركود إلى درجة أن رجال الكنيسة دعوا إلى رهبانية تعتزل الحياة وتعمد إلى تعذيب الجسد وتدعو إلى التنائي عن الحياة ورفاهيتها، وقد رووا عجائب لهؤلاء الرهبان من نوم بعضهم في المستنقعات شهوراً، وتحمل البعض لسع الذباب السّام، وسكناهم في مغارات السباع والمقابر، ومن ذلك أنهم يعدون طهارة الجسد منافية لنقاء الروح وصار أزهد الناس أبعدهم عن الطهارة واستمع إلى الراهب الاسكندري يقول: «وا أسفاه لقد كنا في زمن نعد فيه غسل الوجه حراماً فإذا بنا الآن ندخل الحمامات»[1]، وقد أوردت زيغريد هونكة من قبل كيف اقشعر جسم الطرطوشي وقد رأى من قذارة الناس ما رأى[2]. .

---

(1) الإسلام ومشكلة الحضارة ـ سيد قطب.

(2) شمس العرب تسطع على الغرب ـ د. سيغريد هونكة.

وكانت نتائج الرهبانية مخاطر على الحياة الاجتماعية، وما لبث أن انتشر التهريب وخطف الصبيان واستحالت أخلاق الناس إلى رذائل وضاعت القيم واحتلت القوة مكاناً وصارت أداة للظلم والطغيان وزهد الناس في الحياة، وتزلزلت الأسرة واضطرب المجتمع وسحقت الميول الفطرية في الإنسان والتي تدعوه إلى استخدام العقل. . .

وكانت الطامة الكبرى يوم وقفت الكنيسة في وجه العلم والحضارة بما كانت تتبنّاه من آراء علمية خاطئة وخرافات وأساطير شائعة، واعتبرت ذلك جزءاً من الدين وعارضت المنهج العلمي التجريبي الذي تسرب إلى الناس من الجامعات الإسلامية . .

فكان أن حرقت العلماء وكتبهم وحاكمت البعض وطردت آخرين وأمعنت في الكيد لكل رأي متحرر حتى آذن ذلك بظهور الحركة البرتستانتية كرد فعل لجمودها».

وقد رانت الكنيسة على ضمير الإنسان وعقله وأخلاقه بما تملكه من عقائد فاسدة وجمود فكري إلى أن بزغ فجر النهضة وكان الصراع حاداً بين العلم والكنيسة وبين العقل والدين.

مادية الحضارة الغربية:

كانت حضارة الغرب قبل ذلك قد اتصلت بالحضارة

العربية والإسلامية التي كانت تتمدد وتنتشر أنوارها في الأرض عبر قنوات عرفنا منها الحروب الصليبية، وعبر المعاهد العلمية في الأندلس وصقلية مما ترك أثره على أوروبا في نهضة فكرية أدت إلى رفض هؤلاء الكنيسة وجمودها. ترى إلى أين وصلت حضارة الغرب بعد ذلك؟..

لقد انتحى الغرب منذ عصر النهضة في القرن السادس عشر منحى مادياً معارضين الكنيسة وراحوا يلغون دور الدين والإله، وأعلنوا سيطرة الإنسان على الطبيعة وإخراج معادنها وسيطروا على برِّها وبحرها وجوِّها، وفاق أجداده عبر مئات القرون... وتطورت العلوم في كل مجالات الحياة واستطاع الإنسان أن يخلق من المادة وسائل رفاهية وراحة جعلته يستمتع بها أعظم استمتاع.

وفي غمرة انشغال الإنسان بالتيار المادي العلماني المنصرف عن الدين والروح... نسي الجانب الآخر من الحياة بل هو نسي حتى أن يبحث في أغوار نفسه ليعرف من هو؟ وهذا ما نفهمه من تأخر ظهور الدراسات النفسية والاجتماعية، بل إن الدكتور ألكسي كاريل يقول رغم كل ذلك التطور المادي: «حقيقة عِلْمنا عن الإنسان لا شيء،

وإننا نعيش في جهل مطبق بهذا الكائن الذي هو نحن[1] فإذا سألنا لم كان ذلك؟

أجابنا «لأن هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنية وما زالت غير معروفة» ثم راح يتساءل: ما هي طبيعة تكويننا النفسي والفسيولوجي، كيف نستطيع أن نحول دون تدهور الإنسان وانحطاطه في المدنية العصرية، وكان سبب كل ذلك في رأيه:

«لأن قهر العالم المادي الذي استأثر باهتمام الإنسان بصفته المستمرة أدى إلى نسيان العالم العضوي والروحي نسياناً تاماً».

إذن فالحضارة ليست مادة فحسب، وليست روحاً فقط وإنما هي روح وجسد، وعقل وقلب دنيا وآخرة. أما أن تعتبرها مادة فحسب، وصناعة وتجارة وبناء لهذا العالم المادي فقد سبقهم إلى ذلك الرومان فشادوا ما شادوا، وانتهوا إلى ما انتهوا إليه.

«ومشكلة الإنسان في عصر الطاقة أنه يعالج الأمور من قناة واحدة وهي القناة المادية البحتة... وهو يفعل ذلك

---

(1) الإنسان ذلك المجهول لـ د. ألكسيس كاريل.

يرى نفسه وجهاً لوجه أمام القناة الأخرى الروحية. إذ كيف ينسى أنه مخلوق من مادة وروح، من شر وخير، من ظلم وعدل... وأن عليه أن يوازن بينها عن طريق جهاز المناعة الروحي... نسي أن فيه نفخة من روح الله تمثل جهاز الرقابة الروحي على كيان الإنسان بكامله.. وإن حاول تعطيل هذا الجهاز فإنه لا محالة في الهاوية ساقط»[1].

انحراف الحضارة ومزالقها:

وهكذا كانت للحضارة الغربية مزالق عدة ما زالت تؤدي بها إلى العدّ التراجعي على الرغم من كل مظاهر الرقي والتطور المادي ومن تلك المزالق انعدام العقيدة المهيمنة على روح الإنسان، وسيطرة النزعات الإباحية والدعارة، وانتشار الخمرة والأفيون، ودور القوة في تسلط الجنس الأفضل، والعبثية والضياع الذي آلت إليه تلك الحضارة.

أما في ميدان العقيدة والفكر المهيمن، فإننا نرى أن الحضارة الإسلامية كان يرافق نهضتها العلمية في كل خطوة عقيدة ثابتة في قلب كل عالم ومفكّر وسياسي، عقيدة ذات

---

(1) رسالة الجهاد العدد 82 ـ مقالة العصر إلى أين لزيدان عبد الفتاح.

منهج رباني محكم يرسم لها طريق النجاح وكان المسلم ملزماً باتباع منهج الله في التفكير والبناء والعمل ولهذا لم تتحول القوة عند بناة الحضارة من الفاتحين إلى سلاح لإبادة الشعوب الضعيفة أو التحكم بمصائرها كما تفعل الدول العظمى اليوم من التدخل المباشر وبآلات الحرب والدمار، بل وما كانت العقيدة لتسمح لهم أن يتوقفوا عن نشر علومهم في أمم الأرض بل وما كانت لتسمح لهم أن يخرجوا عن نظام الله في الأرض، في السياسة والاقتصاد والعلوم إذ الكل منضبط بتعاليم الله وضوابط كتابه.

أما وقد وقع الطلاق نهائياً بين العلماء والكنيسة، وبانت الكنيسة بينونة كبرى، فلم يعد ثمة مجال أو دور للدين ليفرض سلطانه بل قل معي إن عهداً من القطيعة التامة قام بينهما انتهى إلى تحدٍّ سافر أطلقوا فيه شعارات العلمانية والدين أفيون الشعوب، وراحوا بكلّ علومهم يبنون الحضارة المادية ليثبتوا لهؤلاء بأن الإنسان قادر على أن يرسم طريقه دون وساطة الدين أو مساعدة الإله.

وقد خدع الأكثرون من هؤلاء العلماء وهم يرون أن الإنسان صار سيد زمانه وابن وقته وتمادى فألّه نفسه، وأعلن بعض الفلاسفة عن تأليهه لعقله الجبار، كان ذلك

في منتصف القرن الثامن عشر ـ عصر التنوير ـ وأن له السيطرة على جوانب الحياة بل هو حرّ فيما يعمل فقد انتهى عصر تدخل الدين في الحياة.

ويروح هذا الإنسان بعقله الجبار دون عقيدة ترفده، ليبني ما شاء أن يبني من وسائل الحياة المادية التي أدت إلى رفاهية... ويبدأ القرن التاسع عشر بضربة قاصمة للإنسان وعقله... إذ يدخل عصر الفلسفة الوضعية التي أعلنت عن ألوهية المادة... كان ذلك بعد أن ألّهتْ تلك الحضارة الإنسان ورأت أنه مال إلى عصبية الجنس فأعلن عن الجنس المختار ولم يستطع أن يعدل في استخدام القوة فراح ينقضّ على الشعوب المجاورة وكانت الحروب المدمرة مما دعا إلى ظهور الفلسفة الوضعية الجديدة بمبادئ تعلن أن المادة والطبيعة هي الإله، وبهذا تضاءل الإنسان وتضاءل عقله معه ولم يعد إلهاً وإنما صار من مخلوقات الطبيعة.

ثم جاء دارون وصفع هذا الإنسان وردّه إلى الوراء قروناً عندما أعلن عن أصله فوقف الإنسان مبهوتاً ماذا يراد به؟ ومن يدري وقد كان قرداً يوماً ما، أن يتحول إلى فأر في المستقبل طالما أن قانون التطور لا يتوقف كما يرى

جوليان هكسلي[1] وإذا كان الأمر كذلك فما أسرع ما ينظر الإنسان إلى نفسه بالحقارة والاشمئزاز، ويروح يعب من الشهوات والجنس ما ينسى فيه نفسه وواقعه الأليم.. وبذلك عملت تلك الفلسفات والمذاهب على تدمير الإنسان من الداخل... ففقد ما كان الدين قد أسبغه عليه من تكريم وتفرد وخصوصية ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ كما أفقدته تلك المذاهب كل ما خلعته عليه فلسفة عصر التنوير من إيجابية واستقلال وسيطرة.

ثم كانت خاتمة المطاف عند كارل ماركس في ردّ تصورات التاريخ إلى الاقتصاد وأن الإنسان لا حول له ولا قوة أمام إله الاقتصاد والمادة... وتبعه فرويد فأعمل معوله الأخير في جدار الفضيلة الإنسانية عندما راح يربط كل خلق وأدب ودين وفضيلة بالجنس مما أفقد الإنسان كرامته وأخجله من نفسه.

وقد انتهت تلك المذاهب بتحطيم سلوكية الإنسان وكان لها أثر بالغ في التخبط والاضطراب في الأنظمة والأوضاع لم يستطع معها الرقي المادي أن يصلح ما

---

(1) الإسلام ومشكلات الحضارة ــ سيد قطب.

أفسدته في أعماق الإنسان واستمع إلى الكسيس كاريل يصور موقع هذا الإنسان:

«يجب أن يكون الإنسان مقياساً لكل شيء ولكن الواقع هو عكس ذلك فهو غريب في العالم الذي ابتدعه... ومن ثم فإن التقدم الهائل الذي أحرزته علوم الجماد في علوم الحياة هو إحدى الكوارث التي عانت منها الإنسانية...»[1].

وهكذا نهضت الحضارة ببناء مادي خارجي باهر وعجزت عن أن تبني هذا الإنسان من أعماقه يقول كاريل: «إن الآمال العريضة التي وضعتها الإنسانية في الحضارة العصرية قد أخفقت في إيجاد رجال على قسط من الذكاء أو الجرأة يقودونها عبر الطريق الخطر الذي تعثر فيه لأن بناء الناس لم ينم بالسرعة التي تثب بها الأنظمة من عقولهم.

وكيف يعثر هؤلاء على الرجل الذكي العاقل وقد صار أهون ما لديهم هو الإنسان التي احتلت المادة مكانه...

ومن مزالق هذه الحضارة اليوم ما آلت إليه من سيطرة

---

(1) الإنسان ذلك المجهول ـ د. ألكسيس كاريل.

النزعات الإباحية والشهوات وأساليب الدعارة والشذوذ الأخلاقي وانتشار الأفيون والمارنجونا وامتداد بؤرة الأمراض الجنسية الخطيرة كالإيدز والتي تنذر اليوم بعض الأمم من أنها ستفقد بالإيدز من 30 ـ 40٪ من سكانها خلال بضع سنوات. . .

وعندما ارتد الإنسان معارضاً الدين ومهاجماً الكنيسة، ومتحدياً لسلطانها كان في ظنه أنه يستطيع أن يبني حياة هادئة مستقرّة لا يكدر صفوها مكدر. . . ولكن لم يكن في حسبانه أن هناك أموراً تفوق حساباته وأن بريق الحياة المادية والحضارة والتطلع إلى الثروة والغنى، كل ذلك سيدع الإنسان ينحرف عن مسار الحياة الكريمة، ويدوس الأخلاق الفاضلة. . بحجة أنه تحرر من سلطة الكنيسة وأنه استخدم عقله في التحكم بهذا العالم، بل قل إنه صار إلهاً كما نعتوه. . . ولهذا فقد ركب مركباً صعباً لم يستطع بين كل تلك التيارات أن يضبط سفينته فراح يعلو ويهبط وسط أمواج المادة التي تعصف به وما زالت. . .

ورافق ذلك الارتداد من الإنسان تحرر المرأة وخروجها من قمقمها حيث راحت تتبرج في الأزقة ناشرة جمالها وفتنتها وعريها، وظهرت بؤر المومسات حيث

تضيع كرامة الإنسان وتختلط الأنساب، واستطالت المرأة في غيها ساعدها في ذلك حكام خرجوا عن حدود الدين وجمود الكنيسة ليعلنوا الحرية في كل شيء...

وإذا كان أقطاب المسيحية الأول يرون أن المرأة مدخل الشيطان إلى النفس وأنها دافعة بالمرء إلى الشجرة الممنوعة ومشوهة لصورة الله ـ الرجل ـ وإذا كان آخرون يرونها شراً لا بد منه وأن العلاقة الجنسية هي نجس يجب أن نتجنبه ـ ولو عن طريق نكاح مشروع ـ إذا كان هذا التصور الرهباني قد فرض نفسه يوماً ما فإن المرأة اليوم قد انعتقت من سجنها وخرجت من طوقها وراحت تعاشر من تشاء وتفعل ما تشاء لدرجة أن مسألة العلاقة الجنسية صارت عند أكثرهن مسألة بيولوجية بحتة لا صلة لها بالأخلاق عندهم لأن النعجة والخاروف والبقرة والثور يزاولان ذلك دون أي أثر أو تحسس لشيء[1]. فانظر يا رعاك الله ـ كيف صار مفهوم الجنس عندهم مجرداً من الأخلاق بل صاروا لا يفرقون بين العلاقة المقدسة عند الإنسان وبين العلاقة البهيمية عند الحيوان... ألا ترى أن الإنسان قد مسخ هنا أحقر من قرد...

---

(1) الإسلام ومشكلات الحضارة ـ سيد قطب.

ولما عجزت هذه الإباحية المطلقة عن إشباع الميول وإرواء الغرائز انتشر الشذوذ الجنسي فصرت تسمع عن قانون بريطاني رسمي يبيح اللواطة وصرت تسمع بأنواع من الشذوذ ما كانت تخطر على بال. . . وكان لا بد أن يدفع هؤلاء ضريبة الخروج عن قانون الله. . .

فكانت الأمراض الجنسية المختلفة التي كان آخرها الإيدز والذي يفقد المصاب به جهاز مناعته ومقاومته الداخلية للأمراض، وعندها يصبح الموت أهون مخلص من الآلام، . . . وقد رافق ذلك الخروج عن قانون الله انتشار الأفيون والمخدرات والخمرة. . بحيث صرنا نسمع عن صيحات المنذرين لدرجة أن الرئيس الأمريكي رصد عشرة مليارات دولار لمكافحة الخمور والمخدرات. . . ولكنهم لن يستطيعوا ذلك. .

إن الإسلام وحده هو الذي استطاع إيقاف ذلك تدريجياً وبعقيدة منبعثة من أعماق المسلم. . وهو ما يرجى أن يقوم به عندما تخفق راياته في أقصى الأرض. ومن مزالق هذه الحضارة التي تدّعي رقي الإنسان على الأرض الأخطار المتوقعة من القنابل الذرية والإشعاع الذري الذي بات الإنسان يتخوف من آثاره والذي قسم المجتمع

الإنساني إلى معسكرين يتربص أحدهما بالآخر الدوائر وأمست الأرض معلقة على كف عفريت.

ومن نتائج تلك الحضارة ما نسمعه كل يوم من تلوث البيئة جوّاً وبراً وبحراً حتى بات الإنسان على شفا جرف هارباً من الموت خنقاً أو تسميماً، لقد صار السعي نحو الاهتمام بالبيئة وعدم تلوثها جزءاً من عمل كثير من المؤسسات في الدول...

هذا كله إذاً حصاد تلك الحضارة اليوم وأنت تلمح في الواقع ضياع الإنسان على الأرض وهو لا يدري ما يراد به لاختلاف النظم والمذاهب وفساد الأخلاق والقيم وتحكم النزعة المادية وخروج المرأة الفاضح، فساد في الإنسان عقلاً بالأفيون، وخلقاً في التحرر غير المنضبط، وديناً في نبذ العقيدة، وإنسانياً في سيطرة المادة عليه...

هكذا عمّ الفساد كل شيء حتى أمسى الإنسان يفتش عن طريقه في صحراء ليلها مدلهم وحيرتها قاتلة وما من أحد يمد له يد النجاة، وما تزال الحضارة الغربية تعبر بالإنسان بمنهج من صنعه مستبعدة الدين والعقيدة ظناً منها أن العقل يعصمها من الزلل.

أما الإسلام فقد أطلق يد الإنسان في عمارة الأرض

واستخدام طاقاتها وخاماتها تحليلاً وتركيباً وتعديلاً، بينما هو وضع له منهج حياته ولم يكل إليه وضع ذلك المنهج لأنه مزود بطاقات تمكنه من التحكم في المادة عن علم نسبي ـ بينما لم يزود بمثل هذه الطاقات لمعرفة نفسه. . . وقد رأينا في تحليل ظواهر تلك الحضارة أن الإنسان رغم كل ما استودعه الله من أمانة الخلافة في الأرض ورغم ما سخّر له من القوى والطاقات وعلم كل ما أودعه الله من إدراك النواميس الكونية على الرغم من كل ذلك فهو ما يزال مخلوقاً ضعيفاً غلبته شهواته وحكم فيه هواه وقعد به ضعفه، فشرب الخمرة والأفيون وخرق طبقة الأوزون ولوّث البيئة وأهلك الحرث والنسل وتحدّى الله. . . لهذا كله لم يَدَعِ الله له أمر نفسه ولا تركه يرسم منهجه في الحياة وحده ولكنه تولى ذلك عنه ليريحه.

وإذا كان الإنسان على تلك الدرجة العظيمة من الجهل بنفسه فإن هذا يقتضي منه أن يظل لاصقاً قريباً منه مهتدياً بهديه، فلا يغترّ بفتوحات العلم في عالم المادة. ولكنه آثر الهروب من الكنيسة والخروج من الدين والتحدي المباشر فكان أن سقط في فخ الضياع والعبثية وهو الآن يعاني من مرارة الاحتضار بانتظار من ينقذه. . .

الفصل الخامس

دارون... ومذهب التطور...

عزيزي القارئ: هل لك أن تعير هويتك اليوم لتتحول من دائرة البشر إلى أصلك الجديد الذي يقترحه عليك «هيكل وزملاؤه. . . فتحمل هوية قرد. . . وليكن ذلك من باب التطور والرقي والتجديد. . . فإذا رفضت ذلك فإن هؤلاء العلماء يحاولون إرغامك على هذا الأصل ولو واجهتهم بالرفض المقيت. ترى ماذا سيكون رأي هؤلاء القرود المساكين من حولنا والذين لم يكتمل نموهم وارتقاؤهم في سلم التطور ليصبحوا بشراً مثلنا، بل ماذا سيكون موقفهم إذا علموا أننا استلبنا صفاتهم؟ وكيف سيتم تنظيم هذه القرود الجديدة؟ إن كنت لا تريد ذلك فتعال معي لتسمع القصة، قصة أصلك الجديد والذي يراه

أصحاب النشوء والارتقاء وماذا أرادوا به، وماذا كانت نتائجه الخطيرة على البشر حتى يومنا هذا. . .؟؟

الديانات السماوية بما حملته من مفاهيم وعقائد وقيم وقوانين تؤدي إلى سعادة الإنسان على الأرض لو أحسن اتباعها، فالمسيحية واليهودية وإن حُدِّت بزمن فإنها كانت تحمل بذرة سعادة الإنسان في زمانها كما تحمل بعض القيم والأخلاق الخالدة كعقيدة التوحيد والمثل العليا التي دعت إليها. إلا أن رسالة الإسلام كانت تحمل صفة الشمولية والكلية في معالجة قضايا الإنسان على الأرض، بل هي الشريعة التي أثبتت وما تزال تثبت نفسها في هذا القرن قرن العلوم والانفتاح والكمبيوتر والفضاء والنشوء والارتقاء. . بل كانت السابقة إلى كل مبدأ كريم، وكل مبحث علمي توصل إلى حقائق ثابتة مما أعطاها سمة الخلود على الزمن. . .

وعلى مدى قرون متطاولة وبعيد عصر النهضة ومحاولة الإنسان اختراق حجب المجهول والسعي نحو العلم والاختراع وارتياد آفاق جديدة وحلّ بعض ألغاز كانت مستعصية، ومن ثم الانطلاق إلى ما يشبه التحدي. . . هذا الانطلاق كان الإسلام أسبق إلى الدعوة إليه بقرون وقرون،

بل هو بأبنائه استطاع بناء حضارة ما تزال آثارها شاهدة عليها، في الغرب، وقد فاقها بما رسم لهذا الإنسان من قيم أخلاقية وإنسانية دعاه للالتزام بها، وهو يسعى منطلقاً لكشف آفاق المجهول في الأرض وفي السماء، وفي الحيوان والنبات أو في ذات نفسه. وقد أدرك الإسلام أن هذا العقل يملك من الطاقات الهائلة التي منحه الله إياها ما تمكنه أن يهتدي إلى عظمة الإله الخالق ولذا كانت دعوة الإسلام إلى الاكتشاف والعلم والبحث والتمحيص واستخدام العقول. دعوة مفتوحة ليس لها حدود في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ. . .﴾ [يونس: 101].

ولما صحا الغرب وجد أبناؤه أمامهم حضارة للعرب والمسلمين متكاملة الجوانب فراحوا ينهلون من معينها في الوقت الذي ران فيه الاستعمار بأشكاله على الأمة العربية، وزحف يكتشف أسرار هذا الكون وآفاقه المتطاولة، ولما فوجئ بالكنيسة تقف في وجهه حائلة دون انطلاقه، قامت حرب طاحنة بين العلم والدين وخرج العلماء منها هم المنتصرون واضطرت الكنيسة أن تسلِّم لهم بمتابعة أبحاثهم. ولما تهيأت الوسائل المادية التي تحمل الإنسان على ارتياد ذلك المجهول راح الإنسان يعمل فكره وتتالت

الاكتشافات التي أخرجت كنوز الأرض والسماء المبهمة فكان أن طار الإنسان في القضاء وغاص في الماء وأطاعه الكون. . .

ولما كان العقل محدود الأجواء مهما تعاظم، لهذا كان لا بد أن يستقر عند نقطة ما ويقر بعجزه عن اختراق المستحيل. . . فكان أن خاضت العقول في قضية وجود الإله أو عدمه، واستسلم العقلاء من الفلاسفة، وأعلنوا عن وجود الله، وأن المادة لا يمكن أن تصنع نفسها بنفسها دون أن يكون لها صانع، والأغلب من هؤلاء أعلن إلحاده وبهذا سرت موجة الإلحاد في القرون الأخيرة.

إلى أن نهض العلماء وتفرعت العلوم وراح هؤلاء المفكرون يبحثون بإخلاص ونزاهة مستخدمين التجربة والاستقرار ومناهج البحث العلمي فكانوا يصطدمون مع الآخرين الذين يرون أن الخليّة الصغيرة أو الكريّة البسيطة ذات الخلية الوحيدة والتي زعموا أنها أصل الحياة ـ بينما تبين لهم أنها ليس لها حركة بمفردها، في حين زعم الآخرون أنها تنمو بالتوالد الذاتي كما قال آرنست هيكل وزملاؤه. . . ولكن من يصدق أن خلية صغير جامدة تنامت

بالتولد الذاتي هكذا وبدون محرِّك أو صانع وهي في ذاتها صماء بكماء عمياء لا تملك عقلاً.

ثم كان ما كان من تلك البحوث العلمية التي أدت إلى النظر في الأحياء على الأرض ودراسة أشكالها وأوضاعها ونموها وتطورها والقوانين التي تحكمها، وبدأت تلك المحاولات على يد ـ لا مارك ـ بفرض تفسيرات معينة يرتبط معظمها بعوامل البيئة والمناخ أقام عليها تصوره لفكرة التطور، ولكن ما لبثت مدة حتى ظهر فساد تلك الفكرة وتلاشت. إلى أن ظهر داروين عام 1871 بكتابه «أصل الأنواع» وأعلن مذهبه في التطور والذي كان له من الأثر ما لم يكن يتوقعه داروين نفسه، إذ انتهى ذلك المذهب على يد خلفائه إلى نشر الإلحاد والدعوة إلى المادية البحتة، فكان أن أدت إلى انحراف الغرب عن الدين وادعت أن الأخلاق والقيم والدين تتطور كالإنسان ولا شيء ثابت فما هو هذا المذهب وما هي براهينه وآراؤه؟.

خلاصة هذا المذهب أنه يقوم على أربعة نواميس:

أ ـ ناموس تنازع البقاء: أي أن الأحياء تتنازع مع نفسها ومع الطبيعة ويتم الفوز لأحدها بما يملك من صفات القوة والشجاعة أو كبر الجثة وصغرها أو السرعة أو

الذكاء. . . وبهذا يكتب البقاء للصالح للحياة ويفنى الآخرون وهذا هو معنى تنازع البقاء.

ب ـ **ناموس التباينات بين الأفراد**: أي أن الأجسام الحيّة تتباين وتختلف ببعض صفاتها عن الأصل الذي نشأت فيه ولذا لا يكون التشابه تاماً بين الآباء والأبناء، وإذا كان هذا التباين جزئياً لا يمس الجوهر إلا أنه بمرور الدهور الطويلة يظهر التباين كبيراً ويكون النوع الجديد.

جـ ـ **ناموس الوراثة**: أي أن تلك التباينات تنتقل بالوراثة من الأصول إلى الفروع، وتكون جزئية في البداية ومع الزمن تؤدي إلى ظهور أنواع جديدة.

د ـ **ناموس الانتخاب الطبيعي**: وهو الذي يرتكز عليه مذهب داروين وخلاصته أن ناموس الوراثة كما ينقل التباينات ينقل أيضاً جميع الصفات التي يحملها الأصل إلى الفرع مادية كانت أو معنوية وهذه الصفات منها النافع كالقوة والذكاء ومنها الضار كالأمراض والعاهات. أما الضارة فإنها إما أن تتلاشى وحدها أو تقضي على صاحبها وأما الصفات النافعة فهي التي تجعل صاحبها ممتازاً في معركة تنازع البقاء.

ثم تتوارث الفروع هذه الصفات النافعة جيلاً بعد جيل ويعد ألوف الأجيال يبلغ الامتياز حداً يجعل من الفرد الممتاز نوعاً جديداً، وهذا هو ناموس الانتخاب الطبيعي الذي يراه داروين سبباً لتكوين الأنواع الحية الموجودة على سطح الأرض[1].

أما خصوم داروين فقد نقدوا هذا المذهب علمياً ورأوا أنه ليس قانوناً شاملاً للأحياء كلها ولا يثبت أمام الواقع المرئي في الطبيعة، فالحيوانات البحرية الدنيا باقية حتى الآن على الحالة التي كانت عليها في ابتداء العالم، ولم تتأثر بناموس الارتقاء... كما وجدوا طوائف الأحياء الكبرى (الدنيا منها والعليا) وجدت منها آثار في أسفل طبقات الأرض فلو كان ناموس الارتقاء أكيداً لوجب أن يكون الأعلى منها كذوات الفقرات في أعلى الطبقات.

وكما أننا نجد كثيراً من الأجناس والطوائف كانت في العصور القديمة الأولى أكمل منها اليوم. وهذا يعني أن تلك النظرية وإن حملت بعض الأدلة على بعض الأحياء إلا أنها لم تثبت نفسها في بقية الأحياء التي خالفت منطوقها..

(1) قصة الإيمان ـ نديم الجسر.

وإذا كان داروين يميل إلى ردّ الأنواع وتطورها ـ كما يقول حسين الجسر ـ إلى أصل واحد بناء على مذهبه في ارتقاء الأنواع. إلا أنه بقي مؤمناً بوجود الله ولم يتردد في الاعتراف بأن الله هو الخالق لأصل الأنواع. لأن عقله لم يصدق رأي القائلين بأن الأنواع تولِّد نفسها ذاتياً وبفعل الطبيعة... ورغم ذلك لم تسلم نظريته من التهجم الشديد من رجال الكنائس ورؤساء الجامعات... ومن هؤلاء الكاردينالماننغ الذي ذكر:

«أن مذهب داروين هو فلسفة وحشية تؤدي عقلاً إلى إنكار الإله» ووصف العلامة قسطنطين جيمس في كتابه «الإنسان القردي» أن مذهب داروين أسطورة أو أضحوكة[1].

ودعا د. هدج من جامعة برنستون إلى منع انتشار مثل هذه المذاهب التي تتنافى مع الكتب المقدسة وقد ردّ داروين على منتقديه معتذراً بأن ما نعلمه عن تاريخ الإنسان لا يبلغ شيئاً إذا قورن بمبلغ جهلنا بالتاريخ[2].

---

(1) قصة الإيمان ـ نديم الجسر.

(2) الإسلام ملاذ المجتمعات الإنسانية ـ د. سعيد رمضان البوطي.

رأي خلفاء داروين:

وقف بعض الملحدين في وجه داروين لاعترافه بالله واتهموه بأنه يمالئ رجال الدين وزعموا أن أصل الحياة كريّة بسيطة ذات خلية واحدة زعموا أنها تتكون من الجماد ـ بالتولّد الذاتي، وأشهر القائلين بهذه النظرية العالم البيولوجي الألماني أرنست هيكل، وبنى هيكل مذهبه على بعض مفاهيم نظرية داروين إلا أنه بالغ في استنتاجاته حدّاً جعله يخرج عن المعقولية في تفسير أصل الأنواع، مما جعله يرضى أن المادة في الخلية الصغرى تولدت ذاتياً دون صانع وهذا ما لا تقره عقول الإنسانية فضلاً عن رفض الديانات السماوية له.

يقول هيكل: إن الكون مؤلف من المادة والمادة من ذرات ومن هذه المادة ظهر كل ما في الكون من أحياء وغير أحياء. وحركة العالم هي حركة تطور تبدأ من أبسط الذرات وتنتهي إلى أرقى الكائنات كلها حيّها وجامدها فهي تتألف من عناصر واحدة لا فرق بين حيّ وجامد لأن عناصر المواد العضوية موجودة بذاتها في المواد غير العضوية وأنه بالإمكان تحضير بعض مركبات عضوية

بطريقة صناعية... وعلى هذا الأساس يقرر هيكل أن أبسط أنواع الحيوان نشأت من مادة غير حية بطريقة التوالد الذاتي..

أما كيف تنشأ الحياة من الجماد فهذا ما عجز هيكل عن إثباته ونسي عندها أن هذه الخلية تحمل روحاً من روح الله يجعلها تتحرك وتنقسم لتولد الكائن الحيّ..

ولما بان عجز هؤلاء العلماء أمثال هيكل وبختر ـ فبدل أن يسلِّموا لتفسير الكتب المقدسة في أصل الأنواع والحياة ـ راحوا في عناد وضلال بالغ، فلم يكتفوا أن الناس لم تقتنع في أن الكريّة الأولى، التي وجدت تنامت بالتولد الذاتي، لأن هذه الكريّة ذاتها على بساطتها ذات بناء وتركيب يمتنع صدورها من الجماد مباشرة... فلم يكتفوا بعدم وجود الدليل القاطع على صحة مذهبهم، حتى راح غلاتهم من الماديين ينكرون ـ الخلق الدفعي ـ المباشر الذي ذكرته الكتب المقدسة وزعموا أن الإنسان أصله من القرد واستدلوا كما يقول العلامة الجسر[1] بالشبه العظيم بينه وبين القرد في أكثر الأعضاء، والطبائع كالحيض والعواطف كالفرح والحزن، وشيء من القوة

---

(1) قصة الإيمان ـ نديم الجسر.

والتفكير مع فارق في درجات الرقي، ولكن هؤلاء تحيّروا في كيفية انتقال القرد من الحيوانية إلى الإنسانية نقلته الأخيرة، فقال بعضهم حصل ذلك فجأة، وقال آخرون بالتدريج وبحثوا عن الحلقة المفقودة في طبقات الأرض لم يجدوا أثراً ولم يتمكنوا حتى اليوم من البت في تلك المسألة برأي قاطع.

وقد تصدى كبار علماء العصر للردّ على هؤلاء الذين كان لمذهبهم هذا أثر بالغ في حرف الإنسانية عن الاعتقاد بالله وحملها على إنكار وجوده دون دليل ولا حجة فما هو رأي العلماء (أصحاب الإيمان العقلاني) أولاً وما رأي الدين ثانياً.

ردود العالم كريسي موريسون:

نفخت آراء هذا المذهب الروح في علماء آخرين حتى ألف بعضهم ـ جوليان هكسلي ـ كتاباً سمّاه «الإنسان يقوم وحده» مدعياً أن العلم ينكر وجود الله، ولكن أكبر علماء أمريكا ورئيس المجمع العلمي هناك، كريس موريسون، ردّ عليه بكتاب سماه «الإنسان لا يقوم وحده» أثبت فيه أن الله بارئ هذا الكون.

وفيما يلي ملخص لما يدور حول موضوعنا عن التطور[1]:

لما ظهر داروين طرقت فكره نظرية بقاء الأصلح، وقد أيّد نظريته ببراهين ما زالت ثابتة كشفت لعالم الفلسفة كثيراً من الحقائق التي يمكن إيضاحها، ورغم دقة براهينه واستنتاجاته فإنه لا يقدر أحد حتى الآن أن يقول ما قال هيكل: «أنه لو أعطي ماء ومواد كيماوية ووقتاً كافياً لاستطاع أن يخلق إنساناً».

كما يقرر ـ موريسون ـ إلى أن أتباع داروين وصلوا إلى الإلحاد المادي، وتطرف الآخرون الذين ألهموا الإيمان بوجود الخالق، وأن هناك غاية لجميع المخلوقات، وأنكروا نظرية التطور إنكارهم للإلحاد.. ويصرح موريسون إلى أن وجود الخالق تدل عليه تنظيمات لا نهاية لها تكون الحياة بدونها مستحيلة، وأن وجود الإنسان على ظهر الأرض والمظاهر الفاخرة لذكائه إنما هي جزء من برنامج ينفذه بارئ الكون، ويورد قول اسبورن: «بين جميع

(1) العلم يدعو للإيمان ـ كريسي مورسون ترجمة محمود صالح الفلكي.

الأشياء التي يمكن إدراكها في الكون يقف الإنسان في الطليعة، وبين الأشياء التي لا يمكن إدراكها في الإنسان تتركز الصعوبة الكبرى، فيما له مخ وذكاء وذاكرة وآمال وقوة كشف».

ثم راح يدرس النظام الذي قام عليه هذا الكون بنجومه وأقماره ونظامه الشمسي وأفلاكه المتعددة، وأرضه وسمائه والهواء المحيط به، والغلاف الجوي المحيط ونظام التنفس عند الإنسان والنبات وكيف يتكاملان، ثم درس الحياة وكيف تستخدم ذرات الأرض وتخلق عجائب جديدة طبقاً لقوانين الكون.

وكيف تغلبت الحياة على الظروف المتغايرة للماء والأرض والهواء ولا تزال ماضية في طريقها في شكل نبات وحيوان، من الآميبيا صاعدة إلى السمك والحشرات وذوات الثدي وطيور الجو أو نازلة إلى الجرثومة والميكروب والبكتيريا... وكذا في شكل خلية أو سمكة قرش أو عنكبوت أو ديناصور أو إنسان... والحياة قد جعلت الإنسان وحده سيداً على تموجات الصوت... والحياة مهندسة هندست سيقان الجندب والبرغوث والعضلات والمفاصل، وهي كيماوية تهب المذاق للفواكه والتوابل والعطر للورد، والحياة مؤرخة كتبت تاريخها

صفحة صفحة على الصخور. . . والحياة تلون عينيَّ الطفل وتمنحهما بريقاً، وهي تمنح المخلوقات وسائل الدفاع عن النفس. . .

أما المادة فإنها لم تفعل ذلك قط بل هي لم تفعل أكثر مما تمليه قوانينها فالذرات إنما تطيع قواعد الإلفة الكيماوية وقوة الجاذبية وتأثيرات درجة الحرارة والدوافع الكهربية، والمادة ليست مبتكرة، أما الحياة فإنها تأتي إلى الوجود بتصميمات رائعة جديدة ـ وبدون الحياة تكون المادة جامدة ومتى تركتها الحياة عادت مجرد مادة ـ ولكن تبقى لها القدرة على مواصلة حياة مخلوقات أخرى وبذا تخلد الحياة في الكائنات الحية ـ ألا ترى في هذا رداً على هيكل وجماعته من أن المادة جامدة لا عقل لها ولا تفكير فكيف تستطيع خلق الأنواع أو تكون أصلاً لها. .

أما ما هي الحياة فذلك ما لم يدره إنسان بعد، ولما رأى موريسون الحياة تنتظم في الكون من الذرة إلى المجرة على وتيرة واحدة أعلن أن الحياة ليست إلا أداة تخدم مقاصد الخالق سبحانه. . ولما درس بعض الكائنات الحية من أمثال إحدى العناكب المائية والتي تصنع عشها ـ على شكل منطاد ـ من خيوط بيته وتعلقه بشيء ما تحت الماء ثم

يطلق تحته فقاعة هواء حتى ينتفخ العش وعندها تلد صغارها وتربيها آمنة من هبوب الريح في هندسة وتركيب وملاحة عجيبة.

ثم درس سمك السلمون الصغير ورحلته الطويلة وكيف يمضي سنوات في البحر ثم يعود إلى نهره الخاص به، كما درس لغز ثعابين الماء التي متى اكتمل نموها هاجرت إلى مختلف البرك والأنهار ثم تروح قاطعة آلاف الأميال في المحيط لتصل إلى الأعماق السحيقة جنوبي برمودا لتبيض وتموت، فإذا ولدت صغارها عادت أدراجها إلى الشواطئ التي جاءت منها أمهاتها..

ومن بين جميع الكائنات يقف الإنسان كأعظم نموذج خلقه الله وينتهي موريسون من تلك الأمثلة وأخرى غيرها إلى أن كل كفاية يملكها الحيوان ولا نملكها نحن إنما هي تحدّ لذكائنا... ونحن لا نزال ناقصي العلم حتى نستطيع أن نرد على ذلك التحدي، فكيف تطور الإنسان من قرد وما تزال تلك الأحياء الدنيا تملك من الصفات والذكاء ما لا يملكه الإنسان ولا يقدر عليه مما ليس موجوداً فيه.

ونحن إذا فكرنا في الفضاء الذي لا يفتأ يمتد أمامنا، وفي الزمن الذي لا بداية له ولا نهاية وفي الطاقة المقيدة في

الذرة وفي الكون الذي لا حد له وفي الضوء والكهرباء والحرارة المغناطيسية والجاذبية وسيطرة قوانين الطبيعة على العالم. . إذا فكرنا في هذا أدركنا أننا لا نعرف في الحق إلا القليل. . ويعلق بعد دراسة للقوانين التي تنتظم الحيوان والنبات وحتى أمواج البحار: «يبدو أن الغاية جوهرية في جميع الأشياء من القوانين التي تحكم الكون إلى تركيبات الذرة التي تدعم حياتنا. . وإذا آمنّا بأن الإنسان هو أهم مظهر في الكون، فإن الاعتقاد العلمي بأن جسم الإنسان وجهاز مخه ماديان، قد يكون سليماً فإن الذرات والهباءات في المخلوقات الحية تفعل أفعالاً مدهشة وحركة متوالية. . كل ذلك من روح الله الذي بثه فينا وليس من صنع الخلية الأولى التي زعمها هيكل.

وحدات الوراثة:

وفي بحث الخلية وما تحتويه من كروموزومات وجينات (وحدات الوراثة) والتي توصل العلم إلى معرفتها اليوم إجابة على أعظم حيرة وقف عندها علماء التطور فقد ثبت أن الجينات هي العامل الحاسم فيما يكون عليه كل كائن حيّ أو إنسان، والكروموزومات هي التي تكون النُويّة المعتمة التي تحتوي الجينة، والسيتوبلازم هي المادة

البروتوبلازمية التي تحيط بنواة الخلية. وتبلغ الجينات من الدقة بحيث إنها ـ وهي المسؤولة عن المخلوقات البشرية على سطح الأرض من حيث خصائصها الفردية وأحوالها النفسية وألوانها وأجناسها ـ أنها لو جمعت لكان حجمها أقل من حجم الكستبان. . . هذه الجينات البالغة الدقة هي المفاتيح المطلقة لخواص جميع البشر والحيوانات والنباتات»[1].

فهذه الجينات هي التي تقرر هل الطفل سيشبه أباه أو أمه وليس هناك دليل على أن هذا الشبه تقرره البيئة السابقة للولادة وهو يصل إلى الكمال بحلول الروح والخالق عز وجل ـ لا الخلية المادية الصماء ـ رتّب ذلك ونظّمه فهو لا يسرّع بهذه العملية لأن الإنسان لا يفهمها أو لأنه خلق عجولاً، والتطورات الجديدة تتوقف على الخواص الموجودة وعلى وجود بيئة ملائمة، فالمصادفة والحادث ليس لهما سوى قليل دخل في التطور. . . إلا من حيث الاختلافات التي بين الوالدين التي تحدّ بالفوارق التي تُورّث وقتئذ. . ثم يتساءل موريسون: ما هي قوة التوجيه هذه التي للجينات؟ إنها تتحكم في الخلايا والخلايا

---

(1) العلم يدعو للإيمان ـ كريسي مورسون.

تطيعها طاعة الجند لرؤسائهم. هذه الجينات المحركة الفاعلة لا يمكن أن تكون نشأت عن أصل جامد وخلية مادية كما زعموا... بل إن التدخل من الإنسان في هذه الجينات وتغييره ـ باستخدام الراديوم والأشعة الأخرى ـ لم يأت إلا بذباب عديم الأجنحة ونمل مشوه وشواذ مدهشة... والمعروف اليوم أن الحياة تأتي من خلية واحدة وليس ثمة من دليل يؤيد أية نتيجة أخرى، ويلاحظ أن جميع طوائف الكائنات الحية منفصل بعضها عن بعض بهوّات سحيقة لا يمكن عبورها حتى إن كثيراً منها لا تلبث أن تفقد القدرة على التهجين مثلاً نسل الحمار والمهر هو بغل وليس للبغل سلالة فما تعليل أصحاب مذهب التطور في هذا وأمثاله.. لماذا استعصى البغل على أن يصعد إلى الأعلى بجنسه ليصل إلى إنسان كما وصل القرد حسب قولهم..؟

ولما كانت هذه الانفصالات قد حدثت في بدايات الحياة فإن كل مخلوق قد زاد تخصصه تدريجياً وفقد القدرة على العودة وعلى سرعة التكيّف من جديد، ونظراً إلى ازدياد عدم المرونة أصبح كثير من السلالات مندثراً في حين بقيت الحياة بوجه عام ممكنة لغيرها.

والإنسان حيوان من رتبة الطليعة وتكوينه يشبه تكوين فصائل السيميا ـ الغوريلا والشمبانزي ـ ولكن هذا الشبه الهيكلي ليس بالضرورة برهاناً على أننا من نسل أسلاف سيميائية (من القرود) أو أن تلك القرود هي ذرية منحطة للإنسان، تماماً كما لا يستطيع أحد أن يزعم أن سمك ـ القد ـ قد تطور من سمك الحساس ـ وإن كانا يسكنان نفس الماء ويأكلان نفس الطعام ولهما نفس عظام الجسم.

وفي مجال التباعد ما بين القرد والإنسان أشار موريسون إلى أن العلم بيّن الفرق ما بين إبهام يد الإنسان وقدرتها على الإمساك بالعدد والأسلحة ويعد ذلك أصلاً لتقدم الإنسان وبين إبهام القرد والتي لا نفع لها، فهذا برهان قاطع على أن إبهام الإنسان لا يمكن أن تكون قد جاءت من إبهام قرود السيميا التي تعيش على الأشجار.

كما دلل في ظاهرة التهجين نفسها كظاهرة خلق جديد متطور مثل الكلب السلوقي والكلب الأفطس الأنف، فإذا ربيت تلك الكلاب بعناية تبقى على صفاتها المكتسبة كما هي الآن...

غير أنها لا تشترك في التكوين العام للجسم وإنما تحفظ الشبه الكامل للنوع فأين هو التطور الذي انتقلت إليه

تلك الكلاب وكيف يعقل أن يتحول ـ وقد صار معروفاً لنا اليوم علمياً دور الجينات في عملية الحفاظ على الصفات الوراثية للآباء ـ كيف يعقل أن تتحول القرود إلى بشر. . . ؟

ويتابع عرض بعض الأمثلة: فالرجال لا تنمو لحاهم أقصر من قبل لأنهم يحلقونها، والقطط التي بلا ذيول في جزيرة ـ مان ـ لم تتطور هكذا هناك لأن أحداً قد قطع ذيل قطة، بل لأن جينة ما خاصة بالذيل قد فقدتها تلك القطط، ولكن على الرغم من هذه القطط فإن القطط اللاحقة قد نشأت صحيحة دون تلك الجينة. .

ويعلق موريسون على هذه الأمثلة «إذا كان التغيير للصالح ـ من بين الأحياء ـ فإن تلك التعديلات نراها تستمر، والإنسان المخلوق الذي اعتراه التغيير يُبعَد لأنه غير صالح لملاقاة الظروف» ولكننا نراه على الرغم من أنه غير صالح يستمر في الحياة ويطور نفسه وهذا نقض لمذهب النشوء والارتقاء.

ويبين موريسون نقص علم أصحاب هذا المذهب يومئذ «بأن القائلين بنظرية التطور (النشوء والارتقاء) لم يكونوا يعلمون شيئاً عن وحدات الوراثة (الجينات) وقد وقفوا في مكانهم عند الخلية الأولى. . . أما اليوم فقد حلّ

لغز أيهما جاء قبل البيضة أم الدجاجة فالبيضة ليست إلا غذاء للجنين، وهي تحتوي تلك الخلية الفريدة التي لقيت عشيرها وحين تتحد الجينات التي بالخلايا وتنقسم فإن هذه الجينات مع السيتوبلازم ترغم الآن على إنتاج دجاجة تضع بيضة أخرى وهكذا. . .

والمادة بهذا الشكل ترى أنه لا غاية لها وليس لها غرض حتى في طاعتها الظاهرة للقانون ولكن الحياة في كل مادة منظمة، لها غرض محدد هو تكوين شجرة أو كرمة، أو إنسان، في اتفاق تام مع خطة مرسومة محددة بالجينات.

وهذه الجينات متفق على كونها تنظيمات صغيرة للذرات في خلايا الوراثة بجميع الكائنات الحية وهي تحفظ التصميم وسجل السلف والخواص التي لكل شيء حيّ وهي تتحكم تفصيلاً في الجذر والجذع والورق والزهر والثمر لكل نبات تماماً كما تقرر الشكل والقشر والشعر والأجنحة لكل حيوان بما فيه الإنسان[1].

فكيف يصح أن يتحول القرد إلى إنسان وتلك الجينات

---

(1) العلم يدعو للإيمان ـ كريسي موريسون.

التي كشفها العلم اليوم تحفظ التصميم وصفات الأجداد... وهذا دليل قطعي يثبت به موريسون استحالة تطور الإنسان من سلالة القرود.. فهو يقول «فهل حدث أن أعطت بعض تلك الجينات لقردٍ ما إنساناً» وأمامنا القرود نراها تلد قروداً والشمبانزي يلد شمبانزي شبيهاً له تماماً والفاصولياء تعطي فاصولياء، ولم نر حوتاً ولد سمكة ولا قمحاً أعطى شعيراً... والقانون يتحكم في التنظيم الذري «بالجينات» التي تقرر قطعاً كل تفرع من الحياة من البداية إلى النهاية.

فأين هو هذا التطور الذي يدعونه؟

لقد قال هيكل ذات يوم «أعطني هواء ومواد كيماوية ووقتاً وأنا أصنع لك إنساناً» ترى لمَ لمْ يفعل ذلك والمواد متوافرة له... ويعلق موريسون «لقد أغفل وحدات الوراثة وأغفل الحياة نفسها التي هي هبة من الله» بل إن موريسون ليعلق ساخراً من «هيكل» هذا:

لو أمكنه أن يصنع هذا الإنسان ويتصرف في تحويل الجينات إلى مراده ويمنحها الحياة وحتى في هذه الحالة المستحيلة، لكان سيأتي بوحش لا مثيل له ولو أنه نجح في

إيجاد ذلك الوحش المشوّه لما عزا ذلك إلى المصادفة وإنما يجعله ثمرة عقله الذكي..

ثم يعلق موريسون على عظمة خلق الله وإثبات الخلق له وحده:

حقاً إن الله يخلق معجزاته بأساليب تخفى على الأذهان.

الفصل السادس

قضية التطور ـ الأهداف والمخاطر

هذه القضية الشائكة والتي شغلت الإنسانية أكثر من قرن ـ وما زالت ـ والتي حاول أربابها أن يدمغوا الجنس البشري بجنسية جديدة ما أظنهم يتقبلونها وهي جنسية القرود. . والتي استغلها خلفاء داروين أبشع استغلال من أجل نشر الإلحاد في الأرض والتي كانت الصهيونية العالمية من وراء ذلك كله، ثم راحت لتعلن عن التطور في الدين والقيم والأخلاق لتفقد الإنسان من كل قيمة وكرامة وإنسانية حتى غدا الغرب وحكوماته أضعف من أن تصلح ما أفسدته هذه النظرية وما زرعته من بذور الفساد في كل القيم والمثل الأخلاقية. . . فما هو رأي الدين في هذا كله؟

لقد كان العلامة حسين الجسر من أوائل من تصدوا لنقد هذه النظرية ـ عند داروين ـ وعند خلفائه ـ وكتب

فصلاً رائعاً في ذلك[1] وانتهى إلى أن مذهب داروين عند ثبوته لا يتعارض مع أحكام القرآن ولا مع الإيمان بوجود الخالق يقول: «ومما ترى تجد أن الدين الحق لا يضيق عن قبول حقائق العلم ولا يتعارض معها ولا يجمد أمامها، كيف وهو الذي حثّ العقول على التفكير والبحث والتمحيص» فلكل عقل منتهى الحرية في أن يناقش ويحلل ويبحث ويصل إلى نتيجة، ولكن عليه قبل كل ذلك وبعده أن يأتي بالدليل والبرهان على قانونه الذي ارتآه.

فأصحاب مذهب النشوء والارتقاء ـ والمغالين منهم ـ الذين زعموا أن الإنسان أصله قرد مخاطبون بقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ [الأنعام: 148] وقوله: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [البقرة: 111] فإن عجزوا عن ذلك خوطبوا بقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: 17].

وهكذا فميدان البحث واسع ومفتوح للجميع في الإسلام وليس هناك أي حَجْر على الفكر والعقل ـ كما فعلت الكنيسة ـ وقد كان صدر العلامة الجسر واسعاً وهو

(1) قصة الإيمان ـ الأستاذ نديم الجسر.

يناقش هذا المذهب بكل منطقية وعلم ويبيّن تهافت حجج هؤلاء الماديين والذين رأوا أن المادة الجامدة هي أصل الأنواع.

وهو يرى أن خلاصة النصوص القرآنية في الخلق أن الله تعالى خلق كل دابة من ماء وجعل من الماء كل شيء حيّ، وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى، وأنه خلق الأزواج كلها.. وآيات الكتاب لا توضح هل تم خلق ذلك دفعة واحدة أو بطريق التطور (النشوء والارتقاء). ويعلق بكل عقلانية واحترام للعقل الإنساني على مدى السنين. وهو يرى أنه متى قامت الأدلة القاطعة على صحة مذهب النشوء وأصل الأنواع كان علينا أن نؤول ظاهر تلك النصوص القرآنية ونوفق بينها وبين الدليل القاطع.

نظرٌ سديد وفهم عميق لأهداف الدين العظيمة مما يجعل هذا الدين لا يتعارض مع العلم مهما تطور الإنسان واخترع واكتشف، وتلك هي ميزة الخلود للرسالة الإسلامية، والصالحة لكل زمان ومكان..

ورغم أن هذا الرأي قد يتعارض مع مجرد مناقشة آراء الدارونيين من أن الآيات تقص علينا أن الإنسان قد خلق في أحسن تقويم وأن السِّمة الإنسانية كانت ملازمة له منذ خلق

الله أباه آدم عليه السلام... إلا أن هذا لا يمنع أن نناقش آراء العلماء ونضعها على بساط البحث وقد أبدى أستاذنا محمد سعيد البوطي رأياً حصيفاً يتعاضد مع رأي المرحوم الجسر إذ قال[1]:

«فلا يسوغ لنا بحال أن نتجاهل شيئاً من مضمون هذا الميزان ـ الذي تفسر به آيات الكتاب ـ بصدد تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ من أجل أن المسألة تتعلق بنظرية التطور ومن أجل أن جمهرة علماء الأحياء يبحثون فيها، وأنه يوشك أن يأتي يوم تصبح فيه هذه النظرية حقيقة علمية فإننا لو ذهبنا هذا المذهب لكان ذلك منا تحيزاً واضحاً وخرقاً لشمولية هذا الميزان الذي هو وحده مدار الصحة والبطلان في تفسير أي نص قرآني».

وهو يرد بهذا على الذين فسروا قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ بنظرية النشوء والارتقاء ولم تثبت بعد... بل إن الأستاذ البوطي ليعلن بصراحة العالم الواعي الذي يعلم خلود الكتاب المقدس وأنه أحاط بكل شيء مما قد توجده

(1) الإسلام ملاذ المجتمعات الإنسانية ـ د. محمد سعيد رمضان البوطي.

عقول البشر فيقول: «إنني ـ وقد آمنت بما يقرره كتاب الله عز وجل من أن الإنسان لم يتطور خلال التاريخ من أي فصيلة حيوانية لا أجد إطلاقاً ما يمنعني من متابعة ما يقول أصحاب هذه النظرية ودراسة ما قد ينتهون إليه من بحوث في ذلك، كما أنني لا أجد أي مسوغ لحمل الناس على الكف عن هذه الدراسة والإعراض عما يقوله علماء هذا الشأن في ذلك»[1].

ويروح يدلل بالسبب الذي يدفعه إلى هذا الرأي:

«ذلك لأنني على يقين بأن هذه المتابعة ـ لآراء علماء التطور ـ ستزيد المؤمن بما يقرره القرآن طمأنينة ويقيناً.. وتساهم في تبديد أسباب الشك والجحود عند الآخرين إذا ما تحلوا بحرية الفكر والنظر، وسيعودون بعد تلك الدراسة ليقفوا تحت مظلة هذا البيان المعجز ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: 51].

لقد كان خلق الله للإنسان ضمن منظور آيات كثيرة، في نظام محكم بديع حكته تلك الآيات وفسّره العلم كقوله

(1) نفس المصدر السابق.

تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَٰهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ [المرسلات: 20 ـ 23].

وآيات كثيرة تثبت خلق الله لآدم من تراب ثم سرى قانون الله بأن يتسلسل خلق الإنسان من نطفة من ماء مهين، وهو ماء الرجل مختلطاً بماء المرأة بعد تلقيح البويضة ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: 2]، وبعد لقاء الحيوان المنوي بالبويضة يتم لقاؤهما في الرحم وتتكاثر الخلايا لتتحول إلى إنسان سويّ. هذا الخلق هو الذي عرفه الناس منذ آلاف السنين وهذا هو القانون الذي كشفه لنا العلم اليوم، وصوره حتى صرنا نرى الحيوان المنوي وحركته بالعين وتطور الجنين وتقلباته.. بحيث لا يمكن لأحد أن يشك في هذا أو يبالغ فيه ليزعم أنه تطور عن قرد أو أنه صعد في سلم الرقي الذي سارت فيه الكائنات الحيّة فكان الإنسان آخرها.. ولا ندري ماذا سيحدث له بعد ذلك في هذا السلم ومن الذي سيطيح به ويتسلم مكانه...

ورغم ثبات هذا القانون الإلهي في عملية الخلق فإن الله تعالى لم يغلق باباً للعقل والفكر في أن يبحث ويدرس على شرط أن يكون ملتزماً بالأمانة العلمية والوصول إلى الحقيقة وأن يأتي بالأدلة القاطعة على صحة ما يرى، بل إن

القرآن الكريم كان يملك من الحرية وسعة الصدر في هذا أن فتح باب النقاش على مصراعيه لكل إنسان ليناقش أدق قضايا الدين وهي قضية وجود إله أو عدمه أو أن لله ولداً أو شريكاً كما يزعمون، وقد تنزّل القرآن إلى عقول هؤلاء الباحثين مخاطباً لهم.. قل لهم يا محمد ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: 81].

فأين الحجة والدليل لديكم فإن لم يجدوا ذلك فإما أن يخضعوا لعظمة الله الواحد وإلا فهم ممن ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: 116].

فما أعظم هذه الرسالة الخالدة وهي تساير هذا الإنسان في كافة تقلباته ورقيّه المادي والفكري والمعنوي وحتى وهو يعبر إلى النجوم الأخرى... وما تزال ترافقه في رحلته لتثبت له أن الله واحد أنه مدعوّ إلى اقتحام هذا المجهول في هذا العالم بقوة وأمر من الله، كل ذلك لغاية نبيلة أرادها الله وهي أن يصل هذا الإنسان إلى الاعتراف بعجزه أمام عظمة الإله الواحد وتلك هي الغاية التي انعقدت عليها الكتب السماوية جميعاً.

ورغم أن هناك استحالة علمية في أن تجري حركة التطور عشوائياً من غير نظام أو قانون يحكمها فإن ذلك لا

يمنع من دراستها وإبطال باطلها وإحقاق الحقّ فيها وقد أجاب موريسون وأبان أن «حقائق الأشياء ثابتة لا تتغير وإنما الذي يتغيّر هو الصورة فقط»، ومضى يضرب الأمثلة[1].

نرى أن نزعة الطعام لم تتغير وإنما الذي تطور هو صورة الطعام، وأن نزعة اللباس واتخاذ المساكن لم تتغير وإنما الذي تطور هو صورة وشكل البيوت، وأن نزعة القتال والدفاع عن النفس فطرية لم تتغير وإنما الذي تغير هو صورة القتال. .

وقال: «إن التطور إنما هو في الصور والهيئات لا في الحقائق لأن الحقائق ثابتة لا تتغير، والفكر الإسلامي يؤمن بثبات الأصول العامة والقواعد العليا مع تطور الجزئيات والفروع. والفكر عامة يتطور ولكن يظل ثابت الأصول والمقومات متغير الصورة. ومثله الفقه يجري التطور فيه في الأحكام الفرعية دون الأصول وفي الشريعة أصول ثابتة لا تخضع لقانون التطور كالربا والزنى والحج والصلاة. . . وهذا يعني أنه في الفكر الإسلامي عنصران: أحدهما يمثّل

---

(1) مشكلات الفكر المعاصر ـ أنور وجدي.

الثبات والاستقرار والآخر يمثل التحول والانتقال وأنه لا سبيل إلى إلغاء أحدهما ولا سبيل للقول بالتطور المطلق وإنكار عنصر الثبات، بل لا بد من الارتباط بين العنصرين وإقامة التوازن بينهما، ومن المستحيل عقلاً أن يتوقف أحدهما أو أن ينفصل أو يستعلي ويسيطر فثبات أحدهما واستقراره هو الجمود والتطور المستمر هو الفناء، وإذن فلا بد من الترابط بين الجمود والحركة[1]. . .

الغاية من مذهب التطور:

لم يكن هذا المذهب يوم بدأه داروين وقبله لامارك إلا حلقة في سلسلة أشرفت عليها الصهيونية العالمية مستغلة العلوم في سبيل الوصول إلى أهداف دنيئة الغرض منها نشر الإلحاد وهدم الأخلاق وتحويل المجتمع الإنساني إلى مجتمع تضيع فيه القيم والإيمان ليتسنى لهؤلاء أن يقودوا العالم حسب تعاليم التلمود والتوراة المحرّفة.

وقد جاء في البروتوكول الثاني[2]: «لاحظوا أن نجاح داروين وماركس ونيتشة قد رتبناه من قبل، وأن الأثر ـ غير

---

(1) نفس المصدر.

(2) كتاب الخطر اليهودي ـ ترجمة محمد خليفة التونسي.

الأخلاقي ـ لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي ـ غير اليهودي ـ سيكون واضحاً لنا على التأكيد».

ويرى الأستاذ أنور وجدي «أن الفكرة التي يعتنقها الدارونيون عن تناسل نوع جديد بواسطة نوع سابق ليست إلا افتراضاً اعتباطياً يتعارض مع الآراء الفسيولوجية الرصينة»[1] وأكد أن داروين لم يورد في نظريته أن الإنسان يرجع في أصله إلى القرد وأن الذين زعموا ذلك هم غلاة الماديين الذين ألصقوا هذا القول بمذهب داروين، ونفى هكسلي تلميذ داروين هذا القول، كما أن الإجماع بين العلماء ـ لا الفلاسفة ـ أن الحياة لم تحدث مصادفة وإنما حدثت بقدرة الله وإرادته.

وعلى رأس هؤلاء المزيفين للمذهب لامارك وهيكل الذي دعا إلى تأليه الطبيعة ومن ثم انتقل إلى مجال الاجتماع والفكر على يد هربرت سبنسر الذي حاول تطبيق هذه النظرية على العالم كله في كل مجال..

إذاً فهذا المذهب هو واحد من أهم أهداف الفلسفة المادية الوثنية التي كانت تحاول السيطرة على الفكر

---

(1) مشكلات الفكر المعاصر ـ أنور وجدي.

البشري، وتعمل على تفريغه من الإيمان والأديان والرسالات السماوية. وقد بدؤوا تلك الحملة منذ عصر التنوير لإخراج الفكر الغربي المسيحي من كل القيم ودفعه إلى تيار المادية والذي يهدف إلى تدمير قوى الأديان والتوحيد والأخلاق. ومن ثم إلى تحطيم قواها التي تقف متماسكة في وجه الصهيونية. وقد قامت نظرية التطور بعد أن أعلن خلفاء داروين أن الأحياء كلها ولدت من خلية مادية صغيرة توالدت ذاتياً وارتقت الأنواع حسب قانون الانتخاب الطبيعي، وهذا يعني أن كل شيء يتحول ويتغير ولا يبقى على حاله.

ولما لم يجد دعاة المادية والمتطرفون من خلفاء داروين البرهان العلمي على صحة أن الخلية تنمو ذاتياً وتتوالد، حاولوا إقناع الناس بأسلوب لفظي كقول أحدهم: «ولكن لا بد أن الإنسان قد ترقّى صعداً إلى ما هو عليه الآن عن طريق التطور والارتقاء».

ويتساءل أستاذنا البوطي ساخراً «من أين جاء اتفاقهم على لا بدّ هذه...» المؤكدة لفكرتهم دون تواجد الدليل والبرهان...[1].

(1) الإسلام ملاذ المجتمعات الإنسانية ـ د. محمد سعيد رمضان البوطي.

تعميم نظرية داروين على الدين والأخلاق والقيم:

وراحوا بعد ذلك يطورون مذهبهم في اتجاه آخر فإذا كان الأمر قد ثبت ـ عندهم فقط ـ أن الأصل الخلية الأولى للكائنات هو المادة المتوالدة ذاتياً. فمعنى ذلك أن الإنسان متطور ضمن ذلك السلم، فما المانع أن تعمم هذه النظرية على كل ما له صلة بالإنسان من الدين والأخلاق والقيم؟ فقالوا إن كل شيء يتحول ويتغير ولا يبقى على حاله، وانتهوا بهذا إلى أن الدين يتغير ويتطور إلى اللادينية حتماً، وهكذا قامت موجة الإلحاد التي كان مخططاً لها من قبل الصهيونية القائمة بناء على رأي علماء لا يشك أحد في مقدرتهم العلمية، والذين انتهوا إلى أنه لا إله في الكون.

وهكذا خرج الغرب عن دينه وكان من قبل قد زهدته الكنيسة به وجاءت الصهيونية ونسفت البقية الباقية من الإيمان عنده عن طريق غلاة دعاة مذهب التطور... وهكذا أعلن الإنسان رفضه لكل دين وقامت الحرب الطاحنة بل قل استمرت بين العلم والدين، إلى أن تراجعت الكنيسة عن رأيها وسمح لهؤلاء العلماء أن يبحثوا، فكان مما توصلوا إليه مذهب النشوء والارتقاء والذي قضى على ما تبقى عند الناس من فضيلة وخلق وهدى، حيث خسر الإنسان كرامته بعد أن ألّه العلماء الطبيعة، وصار الإنسان

يشعر وكأنه حشرة في هذا الكون لا قيمة له ولا دين ولا مروءة، وأن العلوم قد صادقت على أن أصله من قرد، فما أسرع ما يخجل من هذا الأصل الجارح لينحرف عن طريق الحق إلى طريق الضلال والشهوات، ثم جاء سبنسر ودوركهايم الصهيوني وأعلنا عن تطور الأخلاق وأنها متبدلة حسب الظروف، وهكذا قلبت أخلاق المجتمعات وتحولت الفضائل فيها إلى رذائل وراح الإنسان يتمرد ويستعبد ويقتل ويشنّ الحروب وهو يعتمد على أن هذا هو من باب الارتقاء ومن باب الجنس الأفضل وبهذا راح هتلر من أجل الجنس الألماني الأفضل يشعل فتيل حروب طاحنة وعمل الاستعمار على استعباد الشعوب وتمّ التمييز بين أبيض وأسود في القرن العشرين، قرن احترام حقوق الإنسان، وانتهكت القيم والفضائل حتى تحول الإنسان إلى ريشة في مهب الريح، وامتد المذهب إلى الأسرة فمزّق كيانها لأن الحياة متطورة متغيرة فلا داعي للإبقاء عليها، وبهذا هدمت التربية الأسرية وخرج الأبناء والبنات إلى الشوارع والأزقة والمراقص وضاعوا وسط عواصف الشهوات والخمرة والأفيون والكوكايين والتي عمل تجار على جلبها طالما أنهم سيجنون أرباحاً طائلة فيها. . . .

وخرجت المرأة وسط هذا التيار سافرة عارية وعملت

على هدم كل ما تبقى من كرامة وهدى وصلاح، فانتشر الفحش والزنى واللواطة ومن ورائها الأمراض الجنسية الخطيرة وعلى رأسها الإيدز والذي صار شبح العصر والذي يهدد بفناء أمم بكاملها. . وقد نشرت مجلة أمريكية أسباب رواج الفحشاء وقبولها وهي عوامل شيطانية ثلاثة وتعمل جميعها على قتل الخير والفضيلة: «وهي الأشرطة الخليعة في دور الخيالة والتي لا تذكي إلا عواطف الحبّ الشهواني، والأدب الفاخر الخليع، وانحطاط المستوى الأخلاقي عامة، فإن نحن لم نحدّ من طغيان تلك العوامل فلا جرم أن يأتي تاريخنا مشابهاً لتاريخ الرومان والذي أوردهم موارد التهلكة»[1]، وفي مقال إخباري من جريدة أخبار اليوم من استوكهولم لموسى صبري جاء فيه: «إن السويد من أرقى دول الأرض مستوى معيشة فرغم أن الدولة قد أمنت كل شيء للشباب من البيت والصحة والإعانات وقروض الزواج ومع كل المشجعات على الاستقرار في الحياة وتكوين الأسرة إلاّ أن الخط البياني لسكان السويد يميل إلى الانقراض وأن نسبة الطلاق في السويد هي أكبر نسبة في العالم كله وما ذلك إلا لأن حرية

(1) الإسلام ومشكلات الحضارة ـ سيد قطب.

الحبّ في السويد صارت نداء طبيعياً كنداء الوطن ونداء العقل ليس فيه ما يدعو إلى كبته، وإلى جانب هذه الحرية هناك حرية أخرى يتمتع بها أهل السويد وهي حرية عدم الإيمان بالله... وهي ظاهرة جديدة تهدد الجيل في السويد وباقي دول اسكنديناڤيا. إن افتقادهم للإيمان يجرفهم إلى الانحراف وإلى الإدمان على المخدرات والخمور[1]...

وهكذا عملت نظرية التطور لداروين وعن طريق خلفائه من الماديين على هدم الدين والإيمان والأخلاق فتحولت المجتمعات الغربية إلى مجتمعات خواء من كل روح وفضيلة وخلق وعقيدة وإيمان. بل إنها اليوم وقد راح ـ الإيدز ـ يسري في دماء أبنائها تنتظر مصيرها الموعود، فهم إن لم يفنوا بالذرة فسينتهوا بالإيدز، وبهدمهم للفضيلة والدين ونزاعهم للفطرة السليمة التي فطروا عليها، ولقد حذر سبحانه وتعالى كل من يخالف طريقه ومنهجه بقوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا بِمَآ أُوتُوٓا أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۞ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: 44 و45].

---

(1) المصدر السابق نفسه.



الفصل السابع

المجتمع الغربي بين نارين..

المخدرات والإيدز

عندما يتعمّق الباحث في دراسة جوانب هذه الحضارة الغربية نجد أنها مغطاة ببريق ماديّ يخفي عيوبها، فإن بحثت عن داخليتها رأيت العجب العجاب وهالك المخاض الذي يدور في فلكه هذا المجتمع والمشاكل المستعصية التي تتحدى كل حلول الحكماء والعلماء والعقلاء في ذلك المجتمع فلا يجدون لها حلاً جذرياً على الرغم من كل الوسائل المبذولة، فإذا قارنت بين مجتمعاتهم ومجتمعاتنا أدركت أن الدين إنما كان رحمة للعالمين وخلاصاً للبشرية من كل ما يعترض سبيلها في الوصول إلى حياة كريمة.

آية عظيمة من كتاب الله كان لها قصب السبق في تنظيم حياة هذا المجتمع الإسلامي العريض والذي حكم يوماً ما نصف العالم بمبادئه وأخلاقه وعلومه...

والآية هي قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: 179].

ولما عمل المسلمون على تطبيقها عاش هذا المجتمع في أسعد حياة فلا قوي يعتدي على ضعيف ولا حاكم على محكوم ولا كبير على صغير، بل الكل ملتزمون بأوامر الله رغبة في ثوابه ورهبة في عقابه، وإذا كان الثواب وسيلة لدفع الناس وحملهم على تنفيذ أوامر الله، فإنه في بعض الأحيان لا بد من تنفيذ العقاب وتطبيق الحدود كما أمر الله أن تطبق من قطع يد السارق، ورجم الزاني أو جلده، وصلب أو نفي الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً. . .

وقد انتقد بعض الغربيين هذه الحدود وقسوتها وتبجّح البعض معلناً أن هذه وحشية وتشويه للإنسان ـ وأن حضارتهم لديها حلول زعموا أنها أرقى من حلول القرآن، وظنوا أنهم بهذا يسبقون الإسلام في رسم الطريق الأسلم والحل الأمثل ـ فراحوا يقترحون وسائل جديدة للصوص وللزناة وللمفسدين، وحلولاً رأوا فيها الخلاص، ولكن سنرى بعد قليل كيف آلت مجتمعاتهم تلك إلى حالة متردية ودروب مسدودة وضياع وحيرة قاتلة وأمراض ليس منها شفاء.

كان الإسلام بما رسمه من حدود إنما يتطلع إلى بناء مجتمع إنساني نقي من كل عيب أو مرض أو رذيلة، فهو دين عالمي وليس دين دولة أو أمة أو زمن. وبهذا المفهوم ينبغي أن تكون نظمه وقوانينه وحدوده ناظمة لحياة البشر في كل العصور، وتلك مهمة عجزت كل قوانين البشر الوضعية أن تقدر عليها، فكان أن رسم الله للناس جميعاً طريق الخلاص فكانت النبوات وآخرها نبوة سيدنا محمد ﷺ وشريعته خاتمة الشرائع وعلى هذا ينبغي أن يكون التشريع الإسلامي يتوافق مع كل تطور وتغيّر في حياة الأمم وعلى مدار الأزمنة، وبهذا كانت الحدود في الإسلام صورة صادقة عن عالمية هذا الدين. خطّت طريق السعادة للمجتمع الإسلامي الذي طبقها بحذافيرها فكان المجتمع المثالي الذي شاد أصول حضارة عالمية في الدين والأخلاق والقيم عجز الغرب اليوم أن يصل إلى بعض مظاهرها.

فعندما سنّ الإسلام قطع يد السارق لم يكن في هذا إجرام ولا إرهاب ولا تشويه للإنسان وإنما كان فيه الحفاظ على حقوق الناس وخاصة الضعفاء المعتدى عليهم وإقامة مجتمع العدالة والمساواة.. وها هي ذي نظم الغرب أبدت رحمة للص في غير موضعها فسجنته فهل استطاعت وخلال

قرن من الزمن أن توقف السارق أو تمنع السرقة والتعدي واللصوصية العكس هو الصحيح، خرج السارق من السجن ليسرق الدجاجة بدل البيضة وليسرق البنك بدل البيت، فهل وجدوا في حلهم هذا حلاً أرفع من حلول الإسلام؟

ولما لم يفهم أبو العلاء المعري منطقية قطع يد السارق لربع دينار بالمقارنة مع قطع يد السارق لخمسمائة دينار بقوله:

يد بخمس مئين عسجد وديت

ما بالها قطعت في ربع دينار

أجابه أحد الفقهاء:

عزّ الأمانة أغلاها وأرخصها

ذلّ الخيانة فأفهم حكمة الباري

وقال: «لما خانت هانت ولما تعففت كرمت. . .».

فإذا درست طريقة قطع يد السارق والشروط التي يجب أن تقطع بها والأدلة الواجب إثباتها عليه، عرفت أن الحدود لم تكن لتشويه الإنسان أو التمثيل به، وإنما كانت لردع هذا الإنسان عن طريق الشر، والحديث الوارد [ادرؤوا الحدود بالشبهات] وسيلة كبيرة لرفع التهمة عن

السارق أو الزاني مما يترك أمامه الفرصة للتوبة والعودة إلى المجتمع إنساناً سوياً عمل على تربية نفسه بنفسه وأدرك خطأه بل وعرف احترام الدين له حيث عفا عنه القاضي أخذاً بشبهة وجدت في القضية. فإذا ثبت للقاضي قيام المتهم بما قام به من سرقة أو زنا ومن لسانه، حتى وفي هذه الحال كان الإسلام يحاول أن يدرأ عنه التهمة لقول النبي ﷺ: «**ادرؤوا الحدود ما استطعتم**» وقد حاول النبي ﷺ أن يدرأ التهمة عن ماعز عندما جاءه معترفاً بالزنى فقال: [لعلك لامست لعلك قبلت. . .] فقال يا رسول الله زنيت فطهرني، ولأن تقطع يد سارق واحد أو سارقين في المجتمع خير من أن تروّع قرية بكاملها أو مجتمع بنسائه وأطفاله، وانظر تطبيق حدّ السرقة في الدولة الإسلامية كيف صار المسلم يرى اللقيطة وهي ليست له فلا يلتفت إليها حتى يرجع صاحبها فيأخذها. . . وقد تقول إنهم يخافون قطع اليد فأقول لك ومن الذي شرع قطع اليد، أليس هو الله، فهم إنما يستجيبون لنداء الله، وإن بدت صورة استجابتهم العملية خوفاً من القطع. . . وإلا فإنهم في كثير من الأحيان يمرون باللقيطة والمتاع ولم يرهم أحد. . . ورغم ذلك لا يقتربون منه، فلمن استجابوا هنا أيضاً وقد

أمنوا رؤية القاضي أو الشرطي لهم، أليست استجابتهم لنوازع الإيمان وقوة العقيدة في قلوبهم، وبهذا ضمن المجتمع الإسلامي حقوق كافة أبنائه من أن يعتدي أحد على أحد.

حصاد المجتمعات الغربية:

وعندما شرع الإسلام الزواج ـ وحرّم الزنى ـ ورتّب حقوقاً للمرأة وواجبات ورسم لها طريقها بنتاً كانت أو زوجة أو أماً أو أختاً، إنما كان يريد إقامة مجتمع إنساني طاهر عفيف يقوم على احترام المرأة وإعطائها حقوقها، وبناء جيل مسلم يهيمن على الكون ويرشد البشرية إلى أقوم سبيل.

فكان الزواج وسيلة لحفظ النوع الإنساني من جهة وكبح جماع الشهوة في نفس الإنسان من جهة أخرى.. أما الغرب فمنذ ظهرت شرعة الإلحاد فيهم، وأعلنوا الحرية المطلقة وغير المحدودة بحدود للرجل والمرأة والأبناء، خرجت المرأة سافرة عارية مائلة جميلة تغري الآخرين وتدفع بهم إلى مهاوي الرذيلة بحيث صارت هي أرخص سلعة في المجتمع فتمرغت كرامتها في الطين وضيّعت

نسبها ونسب أبنائها وجرّت المجتمع كله إلى هاوية رهيبة كادت أن تودي به. . .

إن العلاقات الجنسية غير المشروعة والتي أطلقها الغرب ومنحها لهؤلاء الناس تحت شعار الحرية، حرية الإنسان، وإرواء الغريزة وشعارات أخرى، هذه العلاقات زيّنتها للشباب النفوس الحيوانية ورعت مسيرتها الصهيونية العالمية. منذ أواخر القرن الماضي فأعلنت ـ في بروتوكولاتها ـ عن عري فاضح وانحراف مخطط له لسير البشرية في تيار الخلاعة والإباحية ليتم لها قيادة العالم. . .

فماذا حصد هؤلاء من تلك العلاقات غير المشروعة؟ ضاعت الأسرة وضاعت المرأة وضاع الرجال واضطرب المجتمع وكان حصاد ذلك الأمراض الجنسية المتعددة فإذا كانوا قد استطاعوا مداواة «السفلس والتعقيبة» الناتجة عن الزنى، ثم ساروا في نفس الطريق متحدين أوامر الله غير آبهين بها ومخالفين فطرة العفة وشعور الكرامة في النفس، إذا كانوا فعلوا ذلك فإن الله قذف فيهم الأمراض الجديدة والوباء السرطاني الجديد ـ الإيدز ـ الغول الذي سيبتلع من 40 ـ 50٪ من شعوب بعض الدول خلال خمس سنوات،

هذا الوباء الذي ليس له دواء إلا الموت لو استطاع أن يذوقه صاحبه.

إنهم يتحدون الله وقوانينه ويحاولون إصلاح أخطائهم وعيوبهم، يلهثون وراء حلول يتحدون فيها ما شرعه الله. ولكنهم ينسون أن الإسلام قد رسم الطريق الأسهل والأقصر لبناء الأمم الطاهرة العفيفة، الأمم التي تحترم نفسها وتحترم المرأة وتقدر أبناءها، الأمم التي تحيا حياة الزواج الشرعي والذي يتحرك فيه الجميع في ظل راحة نفسية ومعنوية.

إنهم يرون أن الرجم في الإسلام للزاني وحشية وهمجية، أما أن يقتلوا هم المراة مائة قتلة بضياع شرفها وكرامتها وكرامة أبنائها، أما أن تضيع الأنساب والروابط، وأما أن ترجم أمةٌ بكاملها فتتفشى فيها الأمراض المستعصية والإيدز والهربيس فذلك بنظرهم ليس وحشية... أن يرجم الإسلام زانياً أو أكثر في أمة كثيرة العدد فينضبط الجميع بشرع الله ـ وهذا الذي حدث في زمن النبي ﷺ فلم يرجم إلا ماعزاً والمرأة الغامدية ـ فهذه عندهم وحشية وقسوة، أما أن تهلك أمة وأمم بكاملها في الإيدز والأمراض الأخرى ويصبح أبناؤها في وضعِ الموت عندهم

خير من الحياة فذلك لا يعتبر وحشية من الإنسان الغربي، إنهم يتصارخون اليوم من نتائج آثامهم وعلاقاتهم غير المشروعة ورغم ذلك لا يريدون الاعتراف بخطئهم وبسداد نظام الإسلام وتشريعه.

وخلال القرن التاسع عشر ظهر داروين وفرويد وكارل ماركس وكانت إيحاءاتهم وتوجيهاتهم كلها منصبة على تحقير الإنسان بشتى الطرق مرة بحيوانيته على يد داروين ومرة بوحله الجنسي على يد فرويد ومرة بضآلة دوره تجاه المادة على يد ماركس[1].

كل هذه الإيحاءات تركت أثرها كذلك على المرأة وعلى العلاقات الجنسية بصفة مميزة وراحت تطلق للرجل والمرأة الحرية في تلك العلاقة، وراحا يتلمّسان الشهوة واللذة لذاتها وحتى الهدف الحيواني من حفظ النوع والنسل لم يعد الناس في أوروبا وأمريكا ينظرون إليه إلا على أنه قيد يحدّ من حرية الاختلاط الجنسي، ولم يعودا يتحملان تبعات هذه العلاقات فعمدوا إلى التخلص من آثار اللذة بموانع الحمل والإجهاض...

---

(1) الإسلام ومشكلات الحضارة ـ سيد قطب.

ترى كيف يرون الوضع الآن وقد تفشّت الأمراض الجنسية حتى صار الواحد منهم عندما يودّ الزواج الاعتيادي وحتى صارت الفتاة أيضاً كل منهم يسأل صاحبه: هل عندك إيدز؟ فإذا لم تلتزم الأفراد والأمم سبيل الله فيما أمر بالكلمة الطيبة فستضطر أن تلزمه مكرهة وبعصا إلهية تسوقهم إليها.

وها هي السويد أرقى بلاد الأرض حرية كما يقولون، حرية الحبّ والاستجابة لنداء الجنس فرغم كل الإعانات والضمانات التي تقدمها الدولة للشباب نجد أن نسبة الطلاق فيها أكبر نسبة في العالم والقانون لا يضع عقبة أمام الطلاق حتى قال صحفي نرويجي: «إن مستقبل شباب اسكنديناfيا يتجه إلى الهاوية بلا إيمان».

الخمرة ذلك الداء العضال:

وقد واكب خروج الناس في الغرب عن قانون الله، في اللقاءات غير المشروعة واكب ذلك انتشار الخمور والمخدرات بأنواعها المختلفة وقد قامت منظمة الصحة العالمية بإجراء دراسة حول مشكلة الإدمان على الكحول وقد جاء في تقرير الجمعية السنوية التابعة للمنظمة: «إن

درجة عالية من النجاح في الامتناع عن شرب الخمور دامت طوال أربعة عشر قرناً في البلدان التي تدين الإسلام، وإن السياسة الوحيدة الناجحة التي استطاعت منظمة الصحة العالمية العثور عليها في مجال مكافحة الإدمان كانت تتمثل في الإسلام الذي يحظر شرب الخمر رسمياً وبصورة باتة قاطعة».

وتقول الدراسة: «إن منظمة الصحة العالمية لم تستطع العثور على إجابة مقنعة حول الدوافع التي تهيب بالناس إلى الإفراط في تناول المشروبات الكحولية مع كل ما يعرفون من مضارها، كما أن المنظمة تجد نفسها في حيرة حيال الوسائل الفعالة الناجمة لمساعدة المدمنين وتخليصهم من هذه الآفة»[1].

وفي الولايات المتحدة الأمريكية ما يقارب عشرة ملايين أمريكي يعانون من الإدمان وهذا يسبب كل عام/ 25/ ألف حالة وفاة، وقد قامت الولايات المتحدة بمحاولة جادة لحل مشكلة الإدمان فماذا كانت النتيجة؟ في عام 1919م أصدر الكونغرس الأمريكي قانوناً بتحريم الخمر

---

(1) مجلة طبيبك أيار/ 1983.

سراً وجهراً ومنع بيعها واستيرادها وتصديرها وفرضت العقوبات الشديدة على المخالفين ونشرت الكتب لتوعية المواطنين وكانت النتيجة: انتشار آلاف الحانات السرية وازدياد عدد شاربي الخمر أضعافاً وسجن حوالي نصف مليون شخص وصدر أمر بإعدام /200/ رجل من المجرمين بسبب الخمر وزادت جرائم القتل 300٪. . وكان ذلك دفع الحكومة إلى إعادة النظر في القانون وقرار الكونغرس عام 1933 إلغاء قرار حظر الخمور[1].

وقال صموئيل ميل في كتابه «قراءة حول الكحول»: «إن القرار قد ألغي على أساس واقعي أن المنع قد فشل وبذلك انتهت أكبر محاولة تقوم بها حكومة دولة جديدة، انتهت بالفشل الذريع في حل مشكلة الإدمان. وكذلك باءت بالفشل كل محاولات الدول الأخرى في حل المشكلة ولم ينجح في حلها سوى الإسلام».

نعم الإسلام وحده هو الذي نجح في حلها فعلى الرغم من جاهلية العرب وتعلقهم بالخمرة وعلى الرغم من

---

(1) كتاب «مع الطب في القرآن» ـ د. عبد الحميد دياب ود. أحمد قرقوز.

قلة وسائل انتشار المعرفة قياساً بأمريكا فإن الإسلام استطاع بعد زرع العقيدة في القلوب وبالتدريج، استطاع أن يخلص العرب والأمم الإسلامية من هذه الآفة ولما نزلت آية التحريم للخمر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ قام المسلمون إلى دنان الخمر فأراقوها حتى سالت طرقات المدينة بها. . إنها العقيدة التي تعطي قوة الإرادة والعزيمة الصلبة وليس سيف القهر والسجن، إنه القناعة الداخلية الممتزجة بقوة الإيمان والتي عملت على تطهير النفوس من أدرانها وعملت على بنائها من جديد، وإذا كانت أمريكا بكل الوسائل التي تمتلكها لم تستطع منع الناس من شرب الخمر مما اضطرها إلى السماح بها من جديد، فإن الإسلام وحده إذا استجابت له الأمم قادرٌ على أن يخلصها من سمومها وآفاتها.

المخدرات. . . الوباء القاتل:

أما المخدرات فحدّث عن ذلك ولا حرج، لقد صار الكيف والحشيش والأفيون والكوكائين والهيروئين. . . مشروب ملايين الشباب في الغرب لدرجة أن علماء الصحة والنفس يكاد ألاّ يجدوا حلاً للخلاص من أضراره وإنقاذ هؤلاء الشبان. . . ولدرجة أن الرئيس الأمريكي رصد لهذا

العام 1990/ عشرة مليارات دولار لمكافحة المخدرات . .
ورغم ذلك فإن ظاهرة انتشاره ومن قبل التجار المستفيدين
والعصابات المتمرسة في تهريبه ما تزال في تصاعد مستمر
وتنبئ عن استحالة الغرب إيقافه أو منعه وإليك الدليل عما
جرى عام / 1989/ «فقد جاءت نتائج المداهمة والمصادرة
ـ للمخدارت ـ في كل من إسبانيا والبرتغال مذهلة . . .
وقد دلت على أن الكميتين المصادرتين كانتا من بين كبرى
الكميات المصادرة في أوروبا الغربية على الإطلاق وبهذا
أصبحت شبه الجزيرة الإيبيرية المركز الأوروبي للمخدرات
غير المشروعة»[1].

وعن سبب دخول ـ إيبيريا ـ عالم المخدرات ذكروا
«أن ذلك يعود إلى عام 1983 عندما عدّلت الحكومة
الإسبانية الجديدة قانوناً يعود إلى العهد السابق (فرانكو)
بحيث صار القانون يعتبر حيازة أصغر كمية من المخدرات
القوية أو الخفيفة جريمة عقابها لا يقل سجناً عن / 6/
سنوات فبإلغاء صفة الجرم عن حيازة كميات صغيرة
مخصصة للاستعمال الشخصي، فتح التشريع الجديد

(1) مجلة المختار باللغة العربية ـ أكتوبر 1989 .

مسارب الفيضان، أمام دفق المخدرات على إسبانيا والبرتغال»[1]. وبحيث صار الهم الأكبر للبوليس الدولي «الأنتربول» هو دور شبه الجزيرة الإيبيرية الجديد كمعبر رئيسي ومخزن للكوكايين الآتي من أمريكا الجنوبية والمتجه إلى السوق الأوروبية... وقد بلغ إنتاج الكوكايين في أمريكا الجنوبية رقماً قياسياً / 453/ طناً مما دعا إلى إتخام السوق في الولايات المتحدة وأدى ذلك إلى انخفاض سعر الكيلو إلى ما دون عشرة آلاف دولار.

وفيما تضاعفت جرائم المخدرات مرتين في ألمانيا الغربية وثلاث مرات في فرنسا منذ منتصف السبعينات[2] حاولت السويد معالجة المشكلة المتفاقمة واستطاعت أن تخفف من انتشارها بمؤسساتها الاجتماعية إلى ٪40.

إن ظاهرة المخدرات وباء قاتل وهو مشكلة الشعوب الغربية في عصر الفضاء والعقل الآلي ولن يستطيعوا التغلب على هذه الظاهرة تماماً كما فشلوا في الخمر، فالمشكلة ليست مشكلة حضارة ورقي مادي فقط، المشكلة مشكلة

---

(1) المجلة نفسها.

(2) مجلة المختار شباط 1989.

خواء روحي ونفسي مني به هؤلاء الشبان، هذا الفراغ النفسي لا يسده إلا الدين والعقيدة، والعقيدة غير موجودة فكيف يمكن التوصل إلى حلّ. . . وسيظل الغرب في حيرة قاتلة وستظل هذه المخدرات تحصد من أبنائه ما تحصد حتى يذعنوا إلى أمر الله ويخضعوا لحلول الإسلام في تنفيذ حدود الله التي أمر بإقامتها والتي طبقها المسلمون فنجحوا. . .

إن الإيمان الصادق والعقيدة الثابتة هما اللذان يهبان المرء صلابة العزيمة وقوة الإرادة في تحدّي النفس وشهواتها ويحولان بينها وبين تعاطي أي مشروب كحولي أو مخدر ـ وفي الشعوب الإسلامية وانصراف أبنائها عن ذلك أكبر دليل ـ وما لم يهيّأ الإنسان في الغرب بالدين والعقيدة فإن كل الحلول ستظل من قبيل ذرّ الرماد في العيون.

وعود على بدء نقول لأولئك الذين رأوا في حدود الشرع وتطبيقها وحشية وقطعاً للأيدي ورجماً للأجساد نقول: أليس أن يجلد شارب الخمر أو يرجم الزاني فيتربى المجتمع كله ويحيى سليماً معافى، أليس هذا أفضل بكثير وبألف مرة من أن ترجم أمة بكاملها وشعوب بالإيذر

والهربيس والسرطان والأمراض المتنوعة والتي تحصد من أبنائها كل عام ما تحصد، والتي حولت المجتمعات هناك إلى حرب عصابات بين الشرطة وتجار المخدرات بحيث يعيش الناس وكأنهم على بركان؟.. وصدق الله إذ يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: 102].

الفصل الثامن

الشيوعية... مسار تصحيح أم نهاية عهد

﴿... وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ...﴾ [إبراهيم: 5] لطالما رفع مفكرو الإسلام عقيرتهم في مواجهة النظام الشيوعي ونقدوا الفكر الذي التزمه والمبادئ التي راح يطبقها، وأثبتوا عدم صلاحيتها لبناء المجتمعات الإنسانية رغم كل التطور الذي آل إليه المجتمع السوفياتي، ورغم كل حضارة قطع أشواطها إلا أن الأمم لا تقاس عظمتها ببناء مادي أو صناعي فحسب بل هناك أسباب ودوافع أخرى أعظم أثراً في بقاء الأمم. ولكن كان تمزق العالم العربي الإسلامي يومئذٍ أكبر من أن يدع لأصوات هؤلاء العلماء مكاناً، وإلى جانب هذا كان هناك سبب آخر ثبّت دعائم الشيوعية وهو النجاح الظاهري الذي سلكت به ثورة ماركس ولينين وبريجنيف، طريقها في ميدان الزراعة والصناعة والفضاء...

ولعلك تعجب أن كثيراً من مفكرينا ـ وحتى اليوم ـ ما زالوا يأملون في هذا النظام خيراً أو أنه بإمكانه أن يحل مشاكله ـ في الوقت الذي فقدت فيه قاعدة بناء المجتمع السليم، من الحرية والديمقراطية ـ مصيبتنا في العالم العربي أننا لا نقتنع ولو رأينا الدليل الواضح أمامنا. . . لأن عمى اعتقاد المبادئ الباطلة قد ران على قلوبنا أو أن العناد والتحدي يمنعنا من أن نتراجع إذا وضحت الحقيقة حيث لا نملك نزاهة العالم للاعتراف بالخطأ، لقد قرأت في إحدى النشرات الأدبية الأسبوعية أن أحد مفكرينا الكبار راح يخاطب غورباتشوف بعيد إقدامه على خطواته الإصلاحية قال ذلك المفكر «إننا نسير خلفك منذ عشرات السنين فما هذا الذي فعلته. . . .» وكأنه عزّ عليه أن يقدم غورباتشوف على خطوته تلك والتي دفعته إليها الأوضاع المتردية في بلده. . فانظر ـ يا رعاك الله ـ كيف صرنا نبدو وكأننا نُساق كالأغنام ليس لنا رأي في الحياة والنظم ولم نعد نملك هذا التميّز الفكري المنطلق من ذاتيتنا وكيف أننا ما زلنا نسير وراء كل ناعق. فمن ذا الذي يستطيع أن يثبت ـ وقبل خطوة غورباتشوف ـ أن النظام الشيوعي كان صالحاً في كل زمان ومكان على الرغم من أنه احتل ثلث سكان العالم تطبيقاً ومنهجية. . .

وإذا كانت أخطاء الأفراد قد لا تبدو للقضاء أحياناً إلا على مدى سنين. فأولى بأخطاء الأمم تمتد طويلاً إذ هي تمتلك من وسائل القوة والسلطان ما تخضع به الأفراد وتقنعهم بأفكارها...

فإذا جاء صاحب الفكر الشيوعي اليوم ـ غورباتشوف ـ وأعلن عن حملته الإصلاحية فهذا يثير عندنا الحزن والأسى بل بلغ الحدّ بذلك المفكر العربي أن يقول «ما كان أملنا بثورة ماركس أن تنتهي هذه النهاية» ونقول لهذا المفكر وماذا كنت تأمل من هذه الثورة أن تحتل العالم بالأفكار التي قامت عليها والتي أوجزها رئيس تحرير مجلة العربي الدكتور محمد الرميحى[1]: «التخطيط المركزي ـ الدولة المتسلطة ـ الحزب الواحد ـ غياب المجتمع الأهلي ـ عبادة الزعيم».

إن كل مبدأ من هذه المبادئ كفيلٍ بأن يزعزع النظام نفسه، ولكنه ظل صلباً طوال السبعين عاماً الماضية بسلاح القوة والضغط...

إن التدبير المحكم الذي خططته الصهيونية يوم قلبت

---

(1) مجلة العربي العدد 375 ـ افتتاحية العدد ـ د. محمد الرميحي.

النظام القيصري ورفعت الصهيوني ماركس على رأس الدولة ـ كان تدبيراً مخططاً له بحيث لا يدع مجالاً للنقد أو الاعتراض وهكذا سارت دولة بكاملها ضمن عبودية جديدة هي عبودية الفرد الذي هو على رأس الدولة مستخدماً أقسى سلاح ـ القوة والقتل ـ وعهد ستالين حافل بهذه الأمثلة التي تخجل التاريخ.

لقد سبقت الأمبراطورية الرومانية هؤلاء في عبادة الأفراد حيث كان القياصرة يرغمون الناس على عبادتهم والسجود لهم، مما أدى برجال الدين المسيحي ـ بعد أن يئسوا من إصلاحهم ـ للّجوء إلى العزلة والرهبانية، ترى من كان يظن يومها أن الأمبراطورية الرومانية على امتدادها الشاسع وحضارتها ستزول وتقضي عليها أو على معظمها دولة الإسلام في معركة اليرموك وخلال خمسة أيام فقط.

أين الخطأ:

إن الحرية ميراث إنساني ومنحة إلهية تستطيع أن تغتصبها من البشر أياماً ولكنك لا تستطيع أن تمنعهم إياها أبداً، إن فعالية التاريخ وحركيته بدت الآن أسبق بكثير من كل تخطيط القادة والزعماء.

ضاعت حرية الفرد وسلبت وكان قد عمل على ذلك من قبل رجال الكنيسة ثم بدت على يد بعض علماء الإلحاد والذين وضعوا الدين وحتى الإله على الرف، ثم كان ما كان من استدراج الصهيونية لبعض علماء الاجتماع دوركهايم ـ وبعد استبعاد فكرة الإله ـ فراح يدعو إلى تأسيس «دين البشرية الكوني» أو «الكليانية الاجتماعية» بحيث يؤله المجتمع نفسه[1] ويعلق دوميناك على هذا الدين الجديد «أليس هناك خطر من أن تصبح النزعة الاستبدادية القائمة على العرق أو على الطبقة الاجتماعية هي أساس الارتباط الشعبي والتأليه الذاتي؟ إذ حتى تقديس الشعب قد يؤدي إلى الاستبدادية والفاشية وقد عرفنا تجارب مريرة من هذا النوع في تاريخ أوروبا الحديث».

فأنت بإزاء نظام يدّعي الحرية ثم هو يعمد إلى تجريدها من الفرد ليلزم بها الجماعة بحيث اختلطت الأمور وسط الجماعة وضاعت الحرية ولم تعد تعرف من المسؤول عنها فإذا سألت قيل إنه الحزب، إنه رئيس السلطة وإنه رئيس الدولة. . وهنا جمدت النظم والقيم لأن

---

(1) كتاب مقاربات الحداثة لدوميناك ـ ملخص الكتاب في مجلة الوحدة العدد 51.

الآراء لا تتفاعل ضمن هذا النظام ليتم دراسة الخطأ من الصواب بل صارت بقية آراء أعضاء القيادة الحزبية تسير في مواكبة آراء القائد أو رئيس الدولة، فتسكت عن عيوب النظام ولا تستطيع البوح بها وهكذا تفاقمت الأمور ولم يعد بالإمكان تقدم الدولة. . . إلا بتصحيح جديد ـ وتلك من أفدح أخطاء النظام الشيوعي.

وبهذا ترى أن خطوة غورباتشوف خطوة جريئة بعد تحكم النظام في مسيرته الطويلة ضمن أطر ومواقف ومبادئ ـ سكت الراحلون عن تصحيحها لعدم تواجد فرصة السماح ببث آرائهم وللمصير الذي كانوا سينتهون إليه ـ وحتى رئيس الدولة غورباتشوف نفسه لا يستطيع أن يبوح بكل ما يريده من إصلاح في هذا الوقت وعلى حدّ قول الرميحي[1].

«إذا كانت هذه المفردات (التخطيط المركزي ـ الحزب الواحد ـ مفردات مفهوم الدولة اللينينية) لا يمكن أن تمسّ في الوقت الحالي في الاتحاد السوفياتي بسبب سخونة خطوات التغير وبُعد نتائجه عن الظهور للجماهير في هذه الفترة وبسبب تواجد ـ الحرس القديم ـ الذي يعد هذا

---

(1) مجلة العربي العدد 375 افتتاحية العدد الدكتور محمد الرميحي.

التراث تراثاً شخصياً ومجتمعياً له، يجب ألا يمسّ فلا بأس من التحرك في أوروبا الشرقية كما فعل غورباتشوف ومعاونوه» من محاولة الإشارة والتلميح إلى دول حلف وارسو «إن لم تواكبوا التغير فإن مصير بعضكم سيصير إلى مصير القادة الجامدين الذين أطيح بهم».

وعلى الرغم من صعوبة الخطوة وتعلق دول حلف وارسو بهذا النظام، وفقدان ماء الوجه أمام التراجع في التطبيق عن الأفكار المعهودة، رغم كل ذلك لم يمنع هذا غورباتشوف من الإقدام على خطوته، وهي خطوة متعقلة في سبيل إيجاد حلول أكثر مرونة لحل الواقع المرير الذي يعاني منه الاتحاد السوفييتي اقتصادياً ومنهجية وتسْييساً، فالمشاكل متفاقمة وقدم الزمن جعلها متشابكة بحيث كان الوصول إلى حل لها ـ قبل غورباتشوف أقرب إلى المستحيل، فإذا عرفت أن تلك المشاكل تمس بناء الدولة كنظام «وتخلف الاتحاد السوفييتي في هذه الفترة عن مواكبة العالم، وأن النقد انصبّ على نقد الممارسات السلبية والفساد السياسي والتلف في النظام الاقتصادي، والتدخل غير المبرر في شؤون دول أخرى[1]، إذا عرفت كل ذلك

(1) نفس المجلة.

أدركت صعوبة البحث عن حلّ، وعرفت جرأة غورباتشوف في صدع هذا النظام المطوق بأسلاك الحديد عبر أكثر من سبعين عاماً.

فليس من السهل أن تبني قصراً في سنين متطاولة ثم تضطر إلى نقضه في آخر الوقت بعد أن عرفت أن أساسه بني على ملح، وسواء أكان الخطأ في طبيعة ذلك النظام أو في تطبيقه أو في أمراض التطبيق (الجمود أو البيروقراطية) فإن الدكتور الرميحي «يرى أنه قصور في القدرة السوفيتية ـ مركز النظام ـ على الاحتفاظ بالمكانة نفسها التي يمثلها النظام في نفوس الكثيرين، إنه الصعوبات الاقتصادية والتنظيمات السياسية، إنه الخبز والحرية»[1].

لقد بدأت خطوات الإصلاح بمراجعة، ثم قادت إلى احتمال كفّ يد الحزب الشيوعي والدولة عن التصرف بمفرده، ثم حقوق القوميات ثم الملكية الخاصة ثم حرية الأفراد، إنها متغيرات تفرز متغيرات جديدة. . . وهذا يعني أن القاعدة الأساسية التي بني عليها النظام فاسدة، وعد معي إلى بروتوكولات حكماء صهيون لترى أن الصهيونية هي

(1) مجلة العربي العدد 375 د. محمد الرميحي.

التي عملت على زراعة هذا النظام ودفعت بماركس على السطح وقادت هذا النظام ليقف في وجه الدين ولنشر الإلحاد من أجل هدف الإطاحة بالنظم الإنسانية بصورة نظام أو كيان مادي اقتصادي ـ ومن وراء ذلك تدمير أخلاقية الإنسان وكرامته. . . وها هي الأيام تكشف وبعد عناء طويل مداخيل هذا النظام والقشة التي تقصم ظهر البعير. .

لقد كان الحاجب الذي حجب أخطاء ذلك النظام شيء من القوة والاستبداد، وغشاوة من التقدم والرقي والرفاهية التي لوحوا بها للشعب في صورة مؤسسات ومجالات علمية وتكنولوجية ظاهرها فيه الرحمة وباطنها قد نزعت منه القيم والأخلاق والدين، ظاهرها الحرية للأفراد وباطنها قيادة جماعية تضيع فيها المسؤولية وديست وسطها حرية الفرد وسحقت فلم يعد له صوت إلا أن يقول نعم. . .

مفهوم الحرية في الإسلام:

إن الإسلام هو الذي أرسى دعائم الحرية والديمقراطية والشورى والعدالة فلا رأي لحزب واحد إنما الرأي كل الرأي للشعب بل وللحق الذي يتجلى في رأي أي فرد، بل إن الديمقراطية نفسها كمبدأ متعارف عليه والذي هو الآخذ

برأي الأغلبية في الأمة نرى أن الإسلام تجاوزه إلى مدى أبعد وأرقى هدفاً وغاية وتطبيقاً، تجاوزه إلى الاعتراف بالحق والحقيقة وإن كان صاحبها أدنى هذه الأمة منزلة أو أضعفها قدرة، فليس في الإسلام الرأي للأغلبية ـ وإن كانت هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة ـ ولكن الرأي للحق أينما وجد ولو على يد طفل أو امرأة. ألا ترى يوم وقف عمر على المنبر ليحدد مهور النساء ـ وقد وافقه كل الصحابة والمسلمون ـ ألا ترى كيف عارضته امرأة قائلة: ليس لك ذلك يا بن الخطاب، قال: ولم، قالت: ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا. . .﴾ أتدري كم القنطار يا عمر؟

موقف رائع يتجاوز منطق الديمقراطية نفسها ويعلو فوقها بدرجات، أدركت فيه المرأة مفهوم الحرية في الإسلام فوقفت تعترض وتحتجّ ومعها الدليل والبرهان، ويكتمل هذا المفهوم الرائع بردّ الخليفة مذعناً للحق الذي وضح على لسان امرأة من أوساط المجتمع وكانت كلمته الخالدة «أصابت امرأة وأخطأ عمر».

هذا المفهوم وبهذه الحرية لن تستطيع كل نظم وديمقراطيات العالم أن تصل إلى مستواه، امرأة واحدة

تعارض وحدها البرلمان والمجلس النيابي وقائد الدولة ومستشاريه!! ولكن لما كان الحق معها خضع الجميع للحق لأن الحق أحق أن يُتّبع ومن هنا قالوا: اعرف الرجال بالحق ولا تعرف الحق بالرجال. لأن الرجال تتغير والحق لا يتغير.

هذا هو المبدأ الذي جعل من الخليفة إنساناً يشاور الآخرين فلا يستبدّ برأي وقد كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه في أكثر من قضية.

وأما حرية الأفراد فلقد خلق الله الناس أحراراً وما كان يجوز في عرف الدين أن تنتزع حرية واحد منهم ظلماً وزوراً حتى ولو كان الظالم قائداً أو رئيساً أو ابن فاتح مصر عمرو بن العاص. وليس بعيداً عنا محاكمة الخليفة عمر لعمرو بن العاص وابنه في خلافه مع القبطي فلطمه ابن عمرو قائلاً: أتسبقني وأنا ابن الأكرمين، وكان القبطي قد تراهن معه في سباق فسبقه، وعندما اقتص عمر للقبطي قال كلمته التاريخية مخاطباً فاتح مصر عمرو بن العاص: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً» فأي نظام في الكون وفي هذا القرن استطاع أن يصل إلى مثل أولئك الرجال في عدالتهم وحريتهم ونظام دينهم...

القيادة الجماعية في النظام الشيوعي ضيعت حرية الفرد ضمن حرية الجماعة فضاعت المسؤولية وغرق النظام في أخطاء متتالية ولا أحد يدري من المسؤول وتفاقمت حتى آلت إلى ما آلت إليه من فوضى وفساد.

وعبادة الزعيم في ذلك النظام تذكر ببقايا نظام قياصرة الروم وأكاسرة الفرس وهي تُقوقعُ الأمة كلها في رأي واحد فلا تدعها تتحرك إلا ضمن هذا المنظور خطأ كان أو صواباً. وإذا كانت الدولة بمصالحها المتعددة والمتشابكة بحيث تعجز الحكومة كلها عن إصلاحها فأولى برأي القائد وهو رأي وحيد ـ وإن كان محنكاً ـ أن يقع في أخطاء بل ويتورط في بعضها ليؤدي بالأمة إلى الهاوية، وبمثل هذا زالت امبراطوريات كان لها امتداد واسع في الأرض.

قرأت ذات يوم كلمة لأحد الكتاب في مجلة العربي مضمونها: أن الأمة التي لا يقودها إلا حزب واحد ورأي واحد لا يمكن لها أن تنجح أبداً.

إن العالم اليوم يتحرك بكافة نظمه ومذاهبه ويتململ محاولاً التغيير ولن يكون هذا التغيير ـ إذا كان صالحاً لنجاح الأمم ـ إلا ملتقياً مع الدين وأهدافه.

فالدين لا ينفرد فيه رئيس الدولة برأ وحيد، وليس فيه عبادة الزعماء، ولا حتى الأبطال وليس فيه كبت لحرية الفرد، وليس فيه ضياع للمسؤولية، بل كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، من الحاكم حتى أدنى فرد في الأمة. .

وبهذا ترى أن الخطوة الأولى التي بدأها النظام الشيوعي في إنكار الدين وأنه أفيون الشعوب، كان ذلك هو أصل البلاء الذي نزل به، ولن تصلح أمور أمة من الأمم إلا إذا اتبعت منهج الله في كل ميادين الحياة. إن الله رسم منهجاً متكاملاً للبشر في السياسة والأخلاق والاقتصاد والحياة، ورتّب حقوقاً وواجبات وفصّل وأجمل وأطلق ومنع، وبشّر ونفّر ورغّب ورهّب. . . ولكنه ضمن نظام كامل يعطي للإنسان حريته وكرامته في جوٍّ من العقيدة الصحيحة التي تدفع بالإنسان إلى اكتشاف آفاق المجهول دون تسلّط دولة أو حكومة أو حزب، بحيث يشعر بكرامته ويتصرف كما لو كان له مطلق الصلاحية ولكنه مرتبط بحرية لا تمسّ حرية الآخرين ولا تتعارض مع مصلحة الأمة العليا وضمن نطاق المنهج الرباني الذي أمرنا باتباعه.

إن قصور المسلمين في تبليغ دعوة الإسلام هو بعض أسباب انتشار أمثال المذاهب ولذا يرى البعض بأنه يقع

بعض تبعات فساد هذا العالم على المسلمين لأنهم يملكون المنهج الكامل ولأنهم قصّروا في تبليغه إلى الإنسانية، المسلمون اليوم يقع على عواتقهم إصلاح العالم المادي والمعنوي لأنهم وحدهم يملكون خلاصه من كل ما يعمل على فساده دينياً واقتصادياً وسياسياً واجتماعياً.

إن الإسلام اليوم يزحف على الغرب وعلى أكثر من قارة وعلى يد علماء درسوه بصدق ونزاهة وتحققوا من صحته. فلننطلق بهذه الرسالة إلى أصقاع الأرض كما فعل أجدادنا، وقبل أن يصلنا هؤلاء المؤمنون ويغزون بلادنا بالإسلام يقولون لنا «هذه بضاعتكم ردت إليكم». . .

الفصل التاسع

خرق طبقة الأوزون ردَّة حضارية

... هذه الطائرة الكونية التي نمتلكها منذ آلاف السنين والتي تطير بسرعة/ 107/ آلاف كم/ سافلاً نكاد نشعر بدوار أو صداع أو اهتزاز، وقد هيئت لنا فيها كل وسائل العيش وسبله من طعام وشراب ورفاهية، والتي أُطلقت أيدينا فيها نسعى ونبني أطرافها. هذه السفينة الفضائية ـ الأرض ـ هل جاءك نذيرٌ بأن بعض أبنائها القابعين في زواياها المختلفة قد تعدوا حدودهم فلوّثوا غلافها الجوي بغازات مصانعهم وجاروا على الأحياء في البرّ والبحر وعملوا على إزالة الشريط الأخضر فيها وعلى ارتفاع درجة حرارتها، وأخيراً على خرق طبقة الأوزون التي تقيهم من أشعة الشمس المهلكة وتدفع عنها الموت الزؤام.

لم يشهد الغلاف الجوي المحيط بأرضنا قدراً من التلوّث مثل القدر الذي أصابه خلال العقود الأخيرة. ومن نعمة الله على الإنسان أنه يبصّره بنتائج ضلاله وسوء تدبيره قبل فوات الأوان ويعرّفه بأخطائه ليحاول إصلاح ما أفسد ويتابع مسيرته في الحياة على نور وبيّنة. ولكن الإنسان ـ الغربي خاصة ـ والمتطور صناعياً وحضارياً بدافع من إتخام الجيوب بالمال. وعدوانه على الأمم الضعيفة بنهب خيراتها وخامات بلادها ومعادنها، ومحاولة تصنيع تلك المواد، وبدافع من حبّ المال والرفاهية عمد إلى إنشاء المصانع الكيماوية والتكنولوجية فاضطر إلى أن يلوّث البيئة والمياه والهواء وحتى طبقات الجو العليا. . . أما التربة فقد لوّثها بما ألقى فيها من سموم من المخصبات والأسمدة والمضادات للحشرات والآفات، أو بنفايات الصناعات العديدة. ولوّث المياه بمختلف المجاري والصناعات ونواقل النفط، كما لوّث الهواء بما تنفثه عوادم السيارات والمصانع والحرائق فرفع تركيز ثاني أكسيد الكربون في الجو ولوثه بغازات أخرى سامة لم تكن موجودة فيه مثل أكاسيد الكبريت والنتروجين الناتجة عن احتراق الوقود ومن عملية التسميد، هذه الأكاسيد التي تسبب المطر الحمضي

وذلك عندما تذوب في مياه الأمطار والتي تصبح أحماضاً مخففة تتركز مع الزمن لتقضي على شتى صور الحياة[1].

كما لوّث الإنسان طبقات الجوّ العليا حتى أصبح غلاف الأوزون اليوم على درجة من الرقة والضعف، وذلك من خلال الاستعمال المتزايد لغاز (كلور فلور هيدرو كربون) كغاز طارد يرتفع ببطء شديد في الجو ويستغرق عشر سنوات كي يصل إلى غلاف الأوزون على ارتفاع يتراوح بين 25 ـ 40 كم عن سطح البحر. . .

فما هي ـ طبقة الأوزون ـ هذه وما مدى خرق الإنسان لها وما نتائج ذلك عن المدى البعيد؟

تقع أرضنا على بعد من الشمس بحيث تصلنا أشعتها بعد ثماني دقائق حاملة كمية من الطاقة اللازمة للحياة. . . وجو الأرض فريد من نوعه إذ هيأه الله لحياة البشر ومهده وبسطه بحيث جعله صالحاً ليعمره الإنسان بينما الكواكب الأخر نجد بعضها محاطاً بمواد سامة كالميثان والنشادر وثاني أكسيد الكربون. . . أما الأرض فهي مغلقة بخليط

---

(1) مقالة د. سمير رضوان «معارك الاستشراق» في مجلة العربي العدد 354.

من الأكسجين والآزوت غير المؤذي يضيف إليها تركيز من ثاني أكسيد الكربون وغاز الماء، وهذه كلها مما تحتاجها الحياة وهي ما يجعل من الأرض كوكباً صالحاً للحياة(1).

والأرض منذ ملايين السنين بدأت تتهيأ لتدبّ فيها الحياة بأشكال معقدة ولا متناهية وكانت الخلايا البسيطة الأولى عبارة عن بكتيريا وطحالب غير قادرة على تنفس الأكسجين وعلى العكس من ذلك فإنها كانت تنتج الأكسجين كنفاية لعملية التمثيل الضوئي ولقد اختلط هذا الأكسجين على مدى بلايين السنين مع المعادن ليشكل الأكاسيد، وعندما أشبعت هذه المعادن ولم تعد قادرة على امتصاص المزيد من الأكسجين راح الباقي منه يتسرّب عبر الجو مشكّلاً طبقة الأوزون العالية الارتفاع. وكانت الشمس خلال هذه الفترة بأشعتها فوق البنفسجية قد عملت على تركيب الأحماض الأمينية للحياة البدائية ولكن هذه الأشعة في نفس الوقت كانت تشكّل خطراً على أشكال الحياة على الأرض وخاصة الأحياء القادرة على تنفس الأكسجين

---

(1) مجلة آفاق علمية ـ العدد 21 أكتوبر 1989.

ـ وخاصة الإنسان ـ فكانت طبقة الأوزون التي تمتص تلك الإشعاعات القاتلة بتشكيلها درعاً يحيط بالأرض.

وآلية ضبط الأكسجين هي الأهم بين العوامل العاملة على اتزان الحياة على الأرض فهي تعمل على ضبط نسبة الأكسجين ثابتة عند 21٪ فإذا قلّ الأكسجين لم تعد الحياة ممكنة وإذا زاد عن ذلك أدى إلى نشوب حرائق لا أسباب لها...[1].

وتلعب الأشجار والنباتات دوراً رئيسياً في ضبط مستويات الأكسجين وثاني أكسيد الكربون بواسطة عمليات التمثيل الضوئي فهي تأخذ من الهواء ثاني أكسيد الكربون وتطرح الأكسجين.

طبقة الأوزون، هذه النعمة الإلهية المحيطة بكوكبنا والعاملة على عكس الأشعة الكونية الضارة وإنفاذ ما يصلح الناس من أشعة الشمس، هذه النعمة ماذا فعل بها الإنسان على الأرض بعلومه وحضارته بل قل بجهله وحبه للمادة؟

فمن أجل رفاهية الإنسان وراحته في العيش، كانت المواد الكيماوية التي تستخرج في عمليات التنمية والإنتاج

---

(1) نفس المجلة.

الصناعي والتي أصبح استخدام بعضها ضرورة حتمية كالمكيّفات والثلاجات وأجهزة التلفاز والفيديو... وكل هذه الأدوات تستخدم في صناعتها مواد كيماوية خطيرة تؤثر تأثير ضاراً على الغلاف الجوي.

هذه المواد التي تسمى ـ كلورو فلورو كربونات ـ متعددة بيد أن هناك خمسة أنواع من هذه العائلة تسبب تآكل طبقة الأوزون في الجو، ويكون التركيز الأكبر منها على ارتفاع 20 ـ 40 كم ومن قدرة الله أنه جعل كميات صغيرة جداً من هذا الغاز منتشرة، هذه الكميات لو تم جمعها وضغطها لوجدنا حجمها 5 ـ 6 سم^3، نعم من 5 ـ 6 سم فقط هذا هو سمكها ولكنها تستطيع حجب الأشعة الكونية الضارة القادمة من الشمس.

فهناك نوع من الأشعة فوق البنفسجية قاتل يقتل الزرع والضرع والإنسان، وهناك نوع آخر من الأشعة لو زاد تأثيره على حد معين فإنه يسبب إصابة العيون (بالمياه البيضاء) ويسبب الإصابة بسرطان الجلد ونقص المناعة في الجسم كالإيدز...[1].

---

(1) كتاب ـ الإنسان والبيئة صراع أم توافق. حوار مع د. مصطفى طلبة ص23.

وقد تأكد العلماء من خلال أبحاثهم العلمية من العلاقة الكبيرة بين تلك الموادالكيماوية وتآكل طبقة الأوزون. كما تأكد للعالم أن هناك فجوة فوق القطب الجنوبي مصابة بنقص في كمية الأوزون من 40 ـ 50٪ من الكمية المفترضة فإذا علمت أن الأوزون هذا لا يمكن تخليقه معملياً من قبل الإنسان إذ هو يتركب في الكون باتحاد ذرتي أكسجين ثم تتدخل ذرة أكسجين ثالثة وأن هذا المركب يتكسر بأشعة الشمس ولكن العناية الإلهية جعلت معدل التكسير معادلاً لمعدل التخليق[1] إذا علمت ذلك أدركت أن الإنسان بما يطلقه من غازات ومواد في الجو إنما يجني على نفسه ويهلك نفسه بنفسه.

وعندما تدخلت تلك المواد الكيماوية حدث خلل هائل إذا أصبح معدل تكسير الأوزون أكبر من معدل التخليق واختلّ ذلك النظام الكوني الموضوع للحفاظ على البشر.. واقرأ معي قول الله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ ﴿وإِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ أي اذكر أيها الإنسان عندما تنشق السماء وتنفطر وتتكسر وليس هذا الانفطار موقوفاً على يوم القيامة فقط، فها هي ذي السماء تنشق وتتفطر بيد الإنسان

(1) الكتاب نفسه.

وها هي صيحات العلماء تتوالى منذرة الإنسان على ظهر هذا الكوكب ومحذرة من المخاطر التي سيتعرض لها البشر من تشقق طبقة الأوزون والتي كانت ربما أخطر من الذرة، فإذا كنا نملك ضبط الجان النووي في الذرة بأزرار وأجهزة تحكُّم فإن طبقة الأوزون يكاد يكون قد خرج عامل الضبط لها من أيدينا اللهم إلا إذا صدقت تلك الدول في مؤتمراتها من أنها بدأت عن طريق علمائها للبحث عن البدائل لتلك الصناعات، وفي حوار مع الدكتور ـ طلبة ـ وكيل السكرتير العام للأمم المتحدة للبيئة أفاد بأن هذه البدائل ستكون متاحة بشكل تجاري في الأسواق العالمية خلال فترة من 7 ـ 8 سنوات، وهذه خطوة جادة من دول العالم الصناعي تنبئ عن وعي بالخطر المحدق بالعالم وعقلانية الإنسان في تدارك الأخطار المحيطة بنا.

معادلة صعبة جداً طرفها الأول والأخير هذا الإنسان إذ عمد بحضارته وصناعته إلى التعدِّي على طبقة الأوزون فخرقها ولكن لن يستطيع أن يخل بالتوازن دون أن تتأرجح به الحياة وتنكفئ، ولكن الدكتور ـ سمير رضوان ـ يرى أن البشرية لو استطاعت أن تمنع تماماً صناعة تلك المواد وإطلاق تلك الغازات، فإنها لن تستطيع إيقاف خرق طبقة

الأوزون هذه وسوف يستمر التآكل لسنوات عشر أخرى على الأقل وهي الفترة التي تستغرقها الغازات التي رششناها اليوم أو أطلقناها من مصانعنا، ويذكِّر هنا بقول العالم السويدي ـ لارسن ـ مكتشف تلك الطبقة بأنه أعلن منذ شهور قليلة أن معدل تآكل غلاف الأوزون قد انخفض إلى حدّ ما ولكنه ما زال في الحدود الحرجة، ولكننا نفهم من خلال الحوار الجادّ بين الدكتور طلبة وبين ممثلي الدول الصناعية تلك أن الحوار قد أعطى نتائج مثمرة وبنّاءة وأنها أدركت مدى الخطورة المحققة على دمار العالم، ولذا نرى أنها في طريق خطوات جديّة لإيجاد البدائل خلال عدة سنوات. .

وهناك عامل آخر كان من أسباب خرق طبقة الأوزون هو الغازات الناتجة عن الحرائق في الغابات الشاسعة، فالغازات الناتجة من هذه الحرائق لها أثر في نقص سمك طبقة الأوزون في منطقة القطب الجنوبي، وسببت تلك الحرائق مع أنشطة الإنسانِ ومصانعه تزايد نسبة غاز ثاني أكسيد الكربون في الجوّ، والنتيجة لهذا تزايد متواصل في درجة حرارة مناخ الأرض، ونضوب الماء وتدمير التربة الزراعية، لأن المعروف أن غاز ثاني أكسيد الكربون يسمح لأشعة الشمس أن تصل إلى الأرض ولكنه يحجز الأشعة الحرارية المرتدة من الأرض ويمنعها من مغادرة الغلاف

الجوي فتحتفظ الأرض بها ومع تزايد نسبة هذا الغاز في الجو تصبح الأرض كمصيدة كبيرة للحرارة. . .[1].

وهكذا نرى أن الحياة على الأرض تدور في وحدة مستمرة كل كائن حيّ أو ميت له مكانة في هذه الدورة، ويبقى كل جزء من هذه الأرض مرتبطاً بالأجزاء الأخرى فحرمان الأرض من الشريط الأخضر سيؤدي إلى فساد الحياة على الأرض وإلى مزيد من الحرارة، وانطلاق الغازات سيؤدي إلى خرق الأوزون وقتل الحياة، وتلوث البيئة بالإشعاعات والسموم ونفايات المصانع لا بد أن يترك أثراً بالغاً.

فالخلل الذي يحصل في مكان ما يسبب تأثيرات ملحوظة في مكان آخر وإذا كان متوسط درجة حرارة الجوّ ارتفع خلال عشرة آلاف سنة درجة واحدة فإن العلماء يتوقعون أن ترتفع تلك الحرارة خلال السنوات الخمسين القادمة ما بين 3 ـ 5 درجات، وقد بدأنا نحصد النتائج من صيف عام 1987، بسقوط أمطار غير اعتيادية أدت إلى تلف المزارع وإلى الانزلاقات والانهيارات الأرضية[2]، ويعلل

---

(1) مجلة العربي العدد 369 آب 1989 مقال الأستاذ رجب سعيد السيد.

(2) مجلة العربي العدد 354 أيار 1988 د. سمير رضوان.

الدكتور رضوان ارتفاع درجة الحرارة تلك بارتفاع نسبة ثاني أكسيد الكربون في جو الأرض من جراء احتراق الوقود في المصانع والسيارات ومن جراء قطع الغابات أو احتراقها وهي التي تستهلك قدراً من ثاني أكسيد الكربون في عملية التمثيل الضوئي. كما أن الباحثين قد اكتشفوا في طبقات الجو العليا غلافاً من غاز الميثان، وهذه الطبقة التي نشأت في الزمن الحديث تعكس الحرارة التي تفقدها الأرض عادة في الفضاء فتعيدها مرة أخرى لترفع من حرارة الجوّ. . .

فإذا استطاع الإنسان بعلومه وحضارته أن يصلح ما أفسده في الكون مائه وهوائه أرضه وسمائه، من سموم وإشعاعات وتلوث، إذا استطاع أن يتدارك نفسه فقد نجا وأنجى وإلا فالخطاب من الله لهؤلاء جميعاً: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ أو بقوله تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ * أَزِفَتِ الْآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ إذا لم يثب الإنسان إلى رشده ويغيّر من أنماط سلوكه وصناعته تجاه البيئة تغييراً جذرياً، وما لم يتعلم من دروس الماضي والحاضر فلن تكون عنده القدرة على محاربة قانون الله في الطبيعة فإن الله تعالى ما وضع قانونه ونظامه إلا لصلاح البشرية. فإن حاولوا خرق هذا النظام فلا بد من أن تنزل

العقوبة بالجميع إذ الأرض كلٌّ متكامل وكل فرد فيها مسؤول عن سير هذه السفينة الكونية في هذا الفضاء غير المحدود، وما حالنا اليوم والأمم المتطورة التي عملت على حرق طبقة الأوزون إلا كذلك المثال الذي ضربه رسول الله ﷺ للصحابة عن جماعة استهموا سفينة فأراد أحدهم أن يخرق خرقاً في موضعه غير آبه بمن حوله وظناً منه أنه لا يسيء إليهم فيقول ﷺ **«فإن أخذوا على يده نجا ونجوا جميعاً وإن تركوه هلك وهلكوا جميعاً»**.

قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾، وقال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ فهذا النظام المقدّر بمقدار، والقانون المسيّر من قبل الله لن تستطيع حضارة الإنسان أن تعيد الهدوء والطمأنينة والسعادة له إلا إذا التزمت بسلوكية ووعي راشد واتصفت بأخلاق الإنسان الذي يكرِّم بني جنسه عن أن يسيء إليهم بأسلوب من الأساليب.. وها هي النذر تحيط بالإنسان تنبئه عن مجاوزته الحد في كل خطوة يخطوها من قطع الغابات وحرقها أو دخان المصانع أو تلوث البيئة، والطبيعة، قدرة الله تملك من الوسائل ما تستطيع أن تخضع هذا الإنسان على الأرض.

فهل نتعلم من هذه الدروس قبل فوات الأوان؟

الفصل العاشر

القضية الفلسطينية

كبرى القضايا العالمية على الساحة الدولية

يحار المرء في قضيتنا، قضية العرب الأولى، قضية فلسطين كلما زاد تعمقاً في البحث عن جوانبها زاد جهلاً وسطحية وأحسّ أن الأمور اشتبكت عليه، وذلك لامتدادها التاريخي واختلاط السياسة فيها بالدين، بحقوق الإنسان، وتعلقها باليهود مرة وبالصهيونية مرة أخرى وبالاستعمار العالمي ثالثاً، ولكونها مهد الديانات السماوية الثلاثة، وقد تعجب كيف يجتمع فيها طهر وقداسات الديانات وإلى جانب ذلك أخبث كيان على وجه الأرض.

وإذا كانت القضايا العالمية قد حُلّت كمشكلة فيتنام وحتى مشكلة الأفارقة السود في جنوب إفريقيا فإنه على الساحة العالمية لم يعد هناك من قضية سلبت أنظار المفكرين وحيّرت المحللين وتناقضت فيها الآراء وتعددت

المناقشات مثل هذه القضية، فمن أين جاءت عالمية هذه القضية وإلى أين انتهت؟

المتتبع لتاريخ القضية قريب قرن من الزمن يرى أن الأمور بدأت تتعقد منذ اللحظات الأولى عندما تطلعت الصهيونية العالمية بمساعدة الاستعمار البريطاني على إقامة كيان لها في فلسطين، فأقيم هذا الكيان ليكون رأس حربة في وجه من تسوّل لهم أنفسهم من العرب إقامة وحده في المشرق لتبقى السيطرة على الطرق التجارية بيد الغرب.

وتاريخ الصهاينة في فلسطين مليء بالمتناقضات التي كان يفتعلها هذا الكيان لتمهيد السيطرة على فلسطين، ولهذا استغل هذا الكيان انتداب بريطانيا على فلسطين ـ وهي التي أخلَّتْ بوعودها مع العرب وأعطت أقدس أرض لهم للصهاينة فبدت في قمة الكرم والجود لدرجة لا توصف سخر منها أحد السياسيين بقوله: «إن بريطانيا بلغ بها الكرم حداً أنها تمنحك القميص الذي يلبسه جارك» إشارة إلى وعد بلفور.

قلت استغل الصهاينة هذه الدولة المستعمرة بريطانيا في التمهيد لهم على أرض فلسطين فكان أن ضغطوا عليها فنالوا وعد بلفور ثم أنشأوا الوكالة اليهودية لتنظيم الهجرة

إلى فلسطين، ثم أنشأوا المستعمرات اليهودية ثم افتعلوا الخلاف بينهم وبين العرب ليتسنى لهم تشكيل عصابات الأرغون والهاغانا و. . . ثم عملوا على صناعة السلاح في فلسطين، وهيأوا للمذابح المتعددة، وأخيراً تمّ للصهيونية ما تريد، في فشل الجيوش العربية عندما دخلت فلسطين من إحراز النصر.

ثم شكلت لها دولة وكياناً مصطنعاً وكان أن تغيرت صورة الاستعمار بعد ذلك فدخل الساحة الاستعمار الأمريكي بديلاً عن الاستعمار البريطاني الذي صفعته الصهيونية على وجنتيه مرة وعلى قفاه مرة أخرى عندما راح بعض ضباطه ونائبيه يتهادنون مع العرب ـ في رأيهم ـ فكان الصهاينة يلاحقون هؤلاء الإنكليز حتى بالقتل إلى أن اضطروهم إلى الفرار وتسليم القيادة للدولة التي احتضنت الصهيونية زمناً طويلاً، بل للدولة التي تعانقها الصهيونية عناق الأم لولدها، الصهيونية التي عملت على الهيمنة على كل إعلام واقتصاد وثقافة العالم والتي وضعت ضمن ما وضعت بروتوكولات حكماء صهيون بموادها المتعددة التي تنتهي إلى إفساد ضمائر ودين وأخلاق العالم ليتسنى لهم أن يقودوا البشر الضالّة كالبهائم بتعاليم التلمود.

هذه الصهيونية هي التي راحت تثبت أقدامها في فلسطين عام 1948 وراحت تتابع سياسة المذابح في كفر قاسم وقبية والسموع.. وحثت الاستعمار الفرنسي والإنكليزي في العدوان الثلاثي لتأديب مصرالتي قرر قائدها تأميم القناة وأبدى صفحة وجه عربية متحررة ودعا إلى وحدة عربية من المحيط إلى الخليج.

ولما فشلوا في ذلك ظلت جهودهم تبذل لمحاولة إعاقة كل فكرة للوحدة تقوم بين الأقطار العربية حتى كانت وحدة مصر وسوريا 1958 والتي لم تدم أكثر من ثلاثة أعوام وعندها راحت الصهيونية تنشب أظفارها في فلسطين وراحت تقيم مصانع الطائرات والآليات الثقيلة وتضايق السكان العرب وتهيئ الجو لتنفيذ وعود ـ يهوه ـ إلههم في التوراة لتحقيق النبوءة «من الفرات إلى النيل» فكان أن بادرت بهجومها عام 1967 على ثلاث دول عربية واستطاعت بمعونة الاستعمار الأمريكي التشبث واقتطاع أجزاء من ثلاث أراض عربية منها الضفة الغربية وسيناء والجولان...

والغريب أن العالم يومئذ لم يتقبل النكسة إلا على أنها هزيمة للعرب الظالمين، وانتصار لليهود الذين كانوا

سيُذبحون ذبح النعاج، ولكن الله انتصر لهم، وما ذلك إلا لضعف إعلامنا في الخارج وانتصار الإعلام الصهيوني في إقناع العالم بأنه الشاة أمام ذئب العرب الذي يريد أن يفتك بها ويتوعدها.

ثم كان ما كان من تغيير الخارطة السياسية لفلسطين واستنسر البغاث وشقّ الغلام الصهيوني عصا الطاعة وبدا الكيان الصهيوني في قمة النصر والتحدي، وإذا كانت حرب تشرين 1973 قد شحنت معنويات العرب بمزيد من القوة فإنها قد هيأتهم للمعركة القادمة.. ولكن الصهاينة كانوا بعد ذلك أسبق منا فزحفوا على جنوب لبنان واحتلوه وحاصروا الفدائيين ثم عملوا على تدمير لبنان وما زالوا يتربصون به الدوائر بمساعدة القوى الانفصالية محاولين تقسيمه شمالاً وجنوباً.

واليوم تقف الصهيونية على سطح العالم بصورة المارد الذي يحاول أن يتمدد ويحتل وينتفض.. إنك لا تستطيع أن تتنبأ أحياناع بزوال الدول أو الأمم أو الشعوب نظراً للتدبير المحكم الذي تتخذه أو القوة التي تحتمي بها وتتدرع في سبيل القبض بيد من حديد على ما احتلته من أرض.

ولكنك ما تلبث أن تلمح وراء الرماد بصيص نار ووراء الغبار شبح قادم، ووراء الضباب قيعان ماء، وكذلك هو الكيان الصهيوني ونظرتك إلى خلفية ما يعده وما يدبره في الخفاء، ففي الوقت الذي ظن فيه هؤلاء أنهم قد انتهوا من صناعة السياسة العالمية وأحاطوا فلسطين بالأسلاك الشائكة الكهربائية وادّرعوا بترسانة السلاح الأمريكي وبالذرّة والصاروخ، في الوقت الذي ظنوا فيه أنهم لن يُهزموا من قلة سلاح ولو اجتمع في وجههم كل العرب، في هذا الوقت أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب فكان أن انطلقت الانتفاضة.

الانتفاضة وأبناء الحجارة:

كان شعبنا في حسبان الصهاينة والمستعمر الأمريكي أنه قد انتهى دوره في سيادته على فلسطين فهو أجرد أعزل من السلاح ونصف سكانه أو يزيد خارج فلسطين ومن بقي منهم لا حول له ولا قوة يقبعون تحت الخيام وقد نزعت منهم أراضيهم وصارت مستوطنات لليهود المهاجرين ونسفت بيوتهم وزُجّ بأبنائهم في السجون واتخذت ضدهم أبشع الإجراءات بحيث بدا للعالم أنه قد استتب الأمن للصهاينة في فلسطين وهم ينامون ويحلمون بأرض البرتقال

والزيتون ملكاً لهم ووعود ـ يهوه ـ لهم ولإبراهيم بأنها ملك لك ولأبنائك من بعدك. . وإذ بهم فجأة يغيم الجو وتربدّ السماء ويسقط الأمر من أيديهم وتنقلب السفينة الآمنة من جديد. . لقد انطلقت الانتفاضة.

عالمية قضية فلسطين والنزاع السياسي المتطاول وملفات الأمم المتحدة بشأنها بهذا الشكل وبهذا المأزق الذي سارت فيه هذه القضية كان مخططاً له، لأنها بهذا التعقيد تخدم الصهاينة إذ يجدون من خلالها مسارب يحوِّلون فيها القضية إلى قضايا جانبية فرعية ثم يبتعدون فيها عن السبب الرئيسي لها لتتحوّل إلى قضية لاجئين وليس قضية شعب طردوه من أرضه وسرقوا خيراته. ولهذا نقلوا القضية من بداياتها إلى منبر الأمم المتحدة وعقّدوا موادها باحتلال أرض وراء أرض وطرد للسكان وراء طرد بحيث بدت كأن خيوطها أمام الرأي العام العالمي من التشابك والتعقيد بحيث تكاد أن تكاد أسطورة ليس لها حلّ، وبحيث ينتهون إلى أن يُقرّ لهم المجتمع الدولي بأنهم كشعب فوق فلسطين فلا يمكن أن يطردوا أو يقضي عليهم، ولا بد على أبعد حل ـ بعد هذا الواقع المفروض ـ أن يقتسموا فلسطين مع أصحابها، بل وحتى هذا الحل

المتهادن جداً من جانب العرب رفضه الصهاينة ورأوه مساساً بحقوقهم الشرعية وسطوا عليها من قبل العرب، فانظر كيف صار اللص صاحب الأرض وحارس البيت وصار صاحبها يستجدي فلا يؤبه له ولا يُبالي به. . .

في غمرة هذا المأزق تبرز عالمية الصراع الجديد في القضية الصراع بين اليد الفلسطينية الحاملة للحجر وبين صواريخ العم سام ومدافع بيغن، بين أطفال الحجارة وطواغيت البيت الأبيض الأمريكي، بين نساء فلسطين وموقعي وثائق ـ الفيتو ـ في منبر الأمم المتحدة. .

صراع ما زال يزداد له عجب الصهاينة وقادتها إذ علموا أن وراءه الإسلام وليس العروبة فقط وهذا أخشى ما يخشونه، وإذا كانوا استطاعوا أن يطولوا بعض قادة الانتفاضة ويطردوهم من فلسطين إلى الخارج فإن الأرض المقدسة ما زال فيها من يحسن قيادة هذا الشعب إلى النصر.

واليوم تقف الصهيونية فاغرة فاها والدهشة تأخذ بمجامع قلوب أبنائها. كيف يصمد هذا الشعب الأعزل وهم يزدادون قهراً ومرارة كلما عرفوا أن الإسلام من وراء انطلاقة هؤلاء، وهم أخوف ما يخافون من العرب أن

يستيقظ فيهم نور الإسلام، لأن ذلك يذكرهم بما فعله المسلمون مع أجدادهم من بني النضير وبني قنيقاع، ومن الغريب أن بعض قادة الأمة العربية ما يزالون يظنون أن معركتنا هي بين العروبة والصهاينة أو بين القومية والصهيونية..

لقد عملت الصهيونية على نزع الدين من المجتمعات الغربية وعلى نشر الإلحاد زمناً طويلاً مزّقت فيه قيم وأخلاق ودين هؤلاء ولكنهم فوجئوا اليوم بأن الإسلام أصلب منهم وهو يزحف على القارات الخمس ـ رغم ضعف المسلمين ووسائلهم ـ وهم إنما يتخوفون من انطلاقة هذا الدين في العالم وخاصة فلسطين ولهذا خاطب أحدهم رجال حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين قائلاً: «أنتم أسوأ من منظمة التحرير الفلسطينية هل تعرفون لماذا؟ لأنكم تجمعون بين العروبة والإسلام. بين الوطنية والإسلام ولذا ليس من سبيل للقتال معكم سوى اجتثاثكم من جذوركم»[1].

---

(1) نشرة المجاهد ـ تصدرها حركة الجهاد الإسلامي فلسطين ـ العدد 20 كانون الثاني 1990.

الإسلام إذاً هو الذي يقود الانتفاضة ويخطط لها بشهادة العدو نفسه، ولهذا لا يمكن أن تتوقف أو تنتهي، إن العقيدة الثابتة في قلوب أهلنا في الأرض المحتلة لا يمكن أن تتزعزع أو تذهب دماء أبنائها هدراً، إن نضال أربعين عاماً لا يمكن ولا يجوز أن يبيعه أي حاكم عربي أو فلسطيني بتوقيع على وثيقة مهادنة أو استسلام وما خطوة السادات إلا أكبر خطأ في فهم جدلية التاريخ وأسوأ قراءة لدماء ألشهداء وأخسأ صفقة في تاريخ شعوب الأرض.

معركتنا القادمة ليست عربية محضة ـ وإن كان العرب ركناً فيها، وليست قومية وإن كانت القومية وسطها، ولكنها معركة إسلامية ضد القوى الصليبية الصهيونية المتآمرة والمتآزرة من جديد والتي عملت أكثر من قرن على طمس الحقائق وضياع الحقوق.

لن تستطيع أية قوة أن تقف في وجه مسار التاريخ، تاريخ الشعوب ونضالاتها ولو كانت القوى العالمية لأن الله بارئ النسم لن يدع أصحاب الحق العزّل الذين ينصرون دينه، لن يدعهم كالشياه في مخالب الذئاب، فلقد حملوا راية الجهاد وبيمينهم الكتاب المقدس، وفي قلوبهم هيبة الله ورفع راية دينه وتحرير بيته المقدس.

إن الانهزامية التي تقبع وسط قلوب البعض منا حكاماً ومحكومين لهي أكبر سلبية وأكثر مرارة من مرارة استشهاد أبنائنا فكيف يعقل أن يحمل أطفالنا الحجارة وعلى أكثر من عامين ويسقطون شهداء ثم يقف أصحاب الكراسي يفاوضون ويناظرون ويراهنون على القضية، كيف تراهن وابنك يقتل؟ كيف تسالم وأنت ترى بأم عينيك أهلنا في الأرض المحتلة تسيل دماؤهم وتسبى نساؤهم وتقتل أطفالهم وتكسر عظامهم ويدفن أحياؤهم ويُسمّم بمياه الشرب عطاشهم، وتهدم بيوتهم وينفى من فلسطين قادتهم. . .

لا أدري لهذا تفسيراً إلا أن بعض الناس عندما يريدون أن يُجنّوا يكون جنونهم مركباً فلا تستطيع حتى بلغة المجانين أن تفهم ماذا يقصدون من تصرّفاتهم.

لا أحد يستطيع أن يسحب البساط من تحت الانتفاضة لأنها أصلب من كل قوة ولا أحد يستطيع أن يبيع دماء شهدائها وهم فوق أرضهم ولا أحد يستطيع أن يحرف مسارها فلقد عرف شعبنا الطريق وخاضه رغم مرارته وعندما تعرف الشعوب طريقها لا يمكن أن تتراجع إلا على جثث أعدائها.

فإذا عرفت أن معركتنا ليست معركة عرب ويهود وإنما هي معركة إسلام وإلحاد إيمان وردّة، معركة فضيلة ورذيلة، معركة نتحمل فيها نحن أبناء فلسطين وزر الصهيونية العالمية وقد لفظتها أمم الغرب لتحتل أرضنا وتقتل أبناءنا، إذا عرفت ذلك أدركت أننا نحارب لا من أجل فلسطين وحدها وإنما من أجل الإنسان على وجه هذه الأرض، الإنسان الذي دمرت الصهيونية حياته ونغصت عيشته وجردته من كل خلق ودين وفضيلة.

إننا في معركة لتخليص العالم من كل عناصرالشر وبؤر الفساد المتمثلة بالصهيونية العالمية، فهل يعي أبناء العروبة والإسلام ذلك؟ وهل تعي شعوب الغرب هذه الحقيقة وقد آن أن يفتحوا عيونهم ليروا الحقائق أسطع من الشمس ويعرفوا دور الصهيونية الحقيقي في بلدانهم وفوق أرض فلسطين.

لن تنام الإنسانية ملء عيونها إلا عندما يتم القضاء على هذا الكيان الصهيوني الذي نغّص على أبناء العالم حياتهم ودمر عقيدة البشر وجعل الشعوب تائهة بين الرذيلة والفجور وعمى الشهوات.

تلك هي عالمية القضية التي نقاتل من أجلها منذ عقود

عدة وما زلنا كل ذلك من أجل تحرير ترابنا المقدس، وتحريرالإنسان على الأرض ورفع شعارات الحرية والمحبة والكرامة الإنسانية.

الفصل الحادي عشر

العالـم في مخاض وسيلد الإسلام

عبرت بالإنسان فوق هذه الأرض نظم عجيبة كان يصطنعها البشر، تدهور فيها الإنسان من قمة الحرية والعدالة إلى حضيض القهر والاستعباد وتزلزت كرامته على الأرض ومسخت عقليته فأمسى يساس كما تساس البهائم.

وبالرغم من الشرائع السماوية السابقة للإسلام فإن الإنسان بعد تطاول الأمد عليها راح يعمل عقله في تحريفها وتزويرها وقلب حقائقها أباطيل ما أنزل الله بها من سلطان وتحولت تلك الكتب إلى مقالات مشوّهة، صارت في قالبها الوضعي الجديد تربّي إنسان القهر والظلم، وتحولت الكنيسة عن أهدافها السامية في إعزاز الإنسان ورفع نير البغي، ومساواة الإنسان بأخيه الإنسان، وتحول أبناؤها في هذا القرن إلى ما يشبه الوحوش لهم أظفار وأنياب طويلة

بحيث صارت تصل إلى قارات بعيدة بصورة صواريخ عابرة للقارات.

ولما استطالت مخالبهم وأدركوا مدى قوتهم وثبوا كالأسد من عرينه وراحوا يستعمرون بلاداً ما كان في حسبان أجدادهم أن يدخلوها، وقهروا الإنسان في الهند وإفريقيا وكل دول العالم الضعيفة وامتصوا دماء أبنائها وخيرات شعوبها ومع ذلك لا يتورعون أن يسموا أنفسهم فاتحين ومحضّرين لتلك الشعوب.

وكان أبناء التوراة أشد بغياً وغروراً وصلفاً وعدواناً، فقد خرجوا عن طريق الله والأنبياء بين أظهرهم، بل لقد نال الأنبياء من بغيهم وعدوانهم ما لم ينله غيرهم وقد صرح كتاب الله بذلك ونعى على بني إسرائيل أول ما نعى عليهم كفرهم بالله وقتلهم الأنبياء وقولهم قلوبنا غلف، وتحريفهم التوراة، والجرائم التي افتعلوها على مسرح الحياة، وكان آخرها تآمرهم على قتل السيد المسيح الذي أُرسل إليهم ليخلصهم من خلق الإجرام والقتل والتمادي في الطغيان الذي كانوا عليه، ولكنه فوجئ بهم يتآمرون عليه مع الرومان ويدبرون معهم طريقة قتله فنجاه الله من براثنهم ورفعه إليه.

وإذا كانت الشرائع السماوية تتنزل من العلي الحكيم على قدر حاجة الخلق إليها ولإصلاح ما أفسد الدهر، وما أحدث الناس من فساد وفوضى وضياع الحقوق ونشر الباطل، فإن الفترة ما بين سيدنا عيسى عليه السلام ومحمد ﷺ كانت من أسوأ فترات الإنسانية. فساد في كل أمم الأرض وحيرة وظلام وطغيان وآلت الأمم والشعوب إلى التعامي عن طريق الحقّ، واسترقاق العبيد، وعبادة غير الله من شجر وحجر ونار وشمس وقمر بحيث مسخ العقل في الإنسان وغار نبع الكرامة الإنسانية في هذا الجو المظلم والبيئة السادرة في غيها والانحراف الواضح. كان العرب في جزيرتهم قد أصابهم ما أصاب الأمم وانقلبت بهم الأهواء ومالوا حيث مالوا فمنهم من بقي على شريعة إبراهيم وهم قلة عرفوا بالحنيفيين ومنهم من كان على بقية شريعة المسيح والتي تغيرت وانحرفت، ومنهم من آثر عبادة الأصنام من دون الله أو عبادة الشمس والقمر.. حتى أذن الله برسالة المصطفى ﷺ وببعثته إلى الناس كافة فكانت رسالة الإسلام أشرف الرسالات وأكملها لأنها جمعت فضائل الرسالات السابقة وشرائعها وأخلاقها وزادتها بشريعة وفضيلة تصير بها صالحة لكل زمان ومكان وها هي

ذي اليوم تقف بين كل شرائع الإنسان ونظمه ومذاهبه العقلية والخلقية والإنسانية تثبت ذاتها قوية وتملك مفتاح سعادة الإنسان على الأرض وإن أنكرها من أنكر، وها هو الإنسان يتخبط اليوم في حيرة دامية وقودها الحروب المدمرة والجثث المتساقطة والكرامة المهينة على الأرض.

وعلى مر السنين أثبتت رسالة الإسلام صفاءها ونقاءها سواء في دعوة الخلق إليها بكل تواضع وتسامح وحكمة، وعدم إكراه لأحد إذ أبدى الفاتحون الدعاة في فتوحاتهم من ضروب الأخلاق والتسامح والرقة ونشر العلوم ما أذهل تلك الأمم، بل ما حملها على أن تترك دينها مختارة وتدخل في الإسلام، بل إن التاريخ ليحدثنا عن مواقف رائعة ما عرف تاريخ الإنسانية لها نظيراً، فقد اضطر خالد بن الوليد ذات يوم في أحد حروبه أن يسحب الجيش العربي من حمص وأهلها نصارى يدفعون الجزية مقابل حماية المسلمين لهم فلما عرفوا ذلك صاروا يتباكون كي يظل المسلمون عندهم ويرجون خالداً. . . أخلاق ملائكية أين منها اليوم صواريخ أمريكا المسلطة على الشعوب، ومذابح الصهيونية في فلسطين.

وتدور الأيام ويتوقف ركب المسلمين وينحرفون عن

طريق الله حيث بدأت تنحسر دولتهم وتتراجع ليحل محلها سلطان أمم أخرى وقد انتهت العصور الوسطى يوم كان الغرب يحيا في ظلام قاتل، وبنتيجة القنوات المتعددة بين الشرق والغرب تمّ نقل حضارة العرب والإسلام... ويستيقظ الغرب وبين يديه برنامج متكامل لحضارة أمة عالمية في كافة ميادين الحياة النظرية والعملية، فما أسرع ما انكبوا على دراستها فكانت المفتاح الذي عبروا بواسطته بوابة التاريخ وصنعوا حضارة طار رائدها في الفضاء وغاص غواصها في أعماق البحار وكادوا يضربون وجه الشمس عظمة وتحدياً. ورغم ذلك راحوا ينكرون معروف اليد التي هدتهم بل تمردوا أكثر فحاولوا قطع تلك اليد التي أسعفتهم في وقت كانوا فيه لا شيء في الحياة.. ولكن تلك الحضارة لم تكن إلا حضارة حجر وبناء وزخرف وطلاء إذ كان ينقصها الفكر الراشد والعقيدة الثابتة.. وتطور الإنسان عندهم وصنع حضارة ورفاهية وتقدماً وطيارات وآلات كهربائية ولكنه لم يستطع أن يصنع سعادة لهذا الإنسان على الأرض، بل قل إنه صنع الشقاء كل الشقاء.. فما إن وقفت الدول العظمى على أقدامها حتى راحت تغذُّ السير لتغزو أمماً فقيرة ضعيفة عن طريق شركات تجارية فنهبت خيراتها

واستعبدت أبناءها حتى صار الإنسان الإفريقي يخطف ضمن مجموعات ليباع في أوروبا أو أمريكا. . . عملية استرقاق وضيعة شهدتها القرون الأخيرة للبشرية وهي على عتبة حضارة جديدة وما زال العالم اليوم يعاني آثارها في التمييز العنصري وما زلنا نسمع عن هؤلاء الذين يميزون بين أسود وأبيض في المأكل والمشرب والمدرسة والأنكى من ذلك أنهم يتهمون الإسلام بأنه دين رقّ. . .

وكان الوجه الآخر لتلك الحضارة حروب دامية ولّدت الأحقاد والكراهية والمآسي والدمار بحيث عجز حكماء تلك الدول ـ حتى اليوم ـ عن إيقاف نزيف الدم البشري الجاري. . . وكان من ثمرات تلك الحضارة عادات وتقاليد وشهوات انحرفت بالإنسان عن طريق السلامة فكان أن انتشرت الخمور وشاع الأفيون والمخدرات بعامة وعملت المذاهب الهدامة على نشر الفساد في الأرض وحرف الشباب عن السبل الصحيحة بمبادئ وضعية من صنع البشر وأصحاب المذاهب المنحرفة من المستعمرين أو العلماء المأجورين. . فشردت العائلة وتمزقت وحدتها ونشرت الإباحية والفوضى الجنسية كما رأينا، وبُثت الدعارة واللامبالاة، وخلقت من إنسان الحضارة إنساناً تافهاً لا قيمة

له ولا كرامة ولا يعرف من حياته غير طعامه ولذته وصار كمن تحيط به عاصفة في دوامة شديدة فأينما اتجه سمع عزيف الريح في أذنيه فأصمّه وأعمى فؤاده، وسدّت منافذ الفضيلة والخير عنه وفرغت العقول والقلوب من معاني الإيمان والعقول من فكرها النيِّر بحيث تعسر الاهتداء إلى الصواب حتى على أعقل العقلاء.

وزاد الطين بلّة أن إنسان هذه الحضارة عمل بمصانعه الكيماوية ودخانها المنطلق عبر الفضاء على تلويث الأرض وخرق طبقة الأوزون في السماء بحيث تركت أثراً بالغاً ما زالت البشرية ـ وستظل ـ تعاني منه. . .

وبدا عجزت المنظمات الأممية عن حلّ مشاكل البشر في الوقت الذي تضافرت فيه عوامل عدة عملت على خلق تلك المشاكل الدولية، وتأزمت لدرجة أن صار من العسير إيجاد الحلول لها. إن المآزق التي وصلت إليها البشرية اليوم والتي بدت تستعصي على الحلّ ليست إلا من صنع تلك الحضارة التي ظن أبناؤها ـ وقد صاروا آلهة ـ على الأرض ظنوا أن في وسعهم ـ وبعقولهم القاصرة ـ تحدي سلطان الله في الأرض حتى زعم عالمهم الملحد أنه بإمكانه أن يخلق إنساناً لو تهيأت له مواد معينة. . . ألا ساء ما يفكرون. . .

الإسلام هو المنقذ:

ومن عظم الإسلام أنه رسم خطّاً واضحاً للحضارة العربية سارت في ركابه فأدركت الهدف ونجحت في فتح نصف العالم في نصف قرن أخلاقاً وعقيدة ومدنية وعلوماً، ولم تستطع حضارة الغرب أن تفعل جزء من هذا بل على العكس استغلت علومها ورقيّها في سبيل إخضاع الشعوب ونهب خيراتها والتآمر على الضعيف فيها.

وهنا ينتفض الإسلام ثانية ماداً يده إلى تلك الشعوب والتي طالما خذلته ولاحقت أبناءه ـ وما تزال ـ محاولاً إنقاذ أبناء الأرض وتخليصهم من مآسيهم... لقد أوشكت حياة الإنسان على الأرض أن تكون كسابقتها قبل بعثة النبي، بل ربما أشد سوء ومرارة وضياعاً... فشلت كل النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية في حلّ مشاكل البشر وعجزوا عن إقامة دعائم العدل والمساواة بين أبناء الأرض وأفلست أو كادت النظم الرأسمالية والشيوعية في أن تحل مشاكل الإنسان، وقد خدعت ببريق المادية والذهب وحياة البذخ والغنى والتطور المادي، وفي وقت طغت المادة على الروح فأعمتها وتحول الإنسان إلى صخرة لا يهتز مهما اضطهدت من شعوب ومهما أريقت من دماء أو انتزعت من حريات...

وفي ميدان الحريات التي أطلقت لأبناء الغرب لم يستطع الواحد منهم ـ في غياب العقيدة ـ أن يضبط شهوته ونزوات نفسه فكان أن جرف في تيار المادية بما حملته معها من خمور ومخدرات ونساء وشهوات، فغرق وسط ذلك التيار وما عاد يستطيع أن يتخلص من أوزار ذلك كله وتبعاته.. هذا التيار المادي الذي تلبّس في الظاهر بلبوس الفتن الباهرة ليخفي وراءه من دواعي الفساد ونذُر الفناء ما يخفيه، وإن المجتمع الغربي لتكاد تسمع صيحات أبنائه وعويلهم بين الحين والحين على الرغم من كل التقدم والغنى فليست سعادة الإنسان بالمادة وحدها، إن الروح لها حقها ولها ضريبتها فإذا لم يحسب لها حساب وإذا لم تعمل على النهوض مع الفكر والعقل وعلى انتزاع الإنسان من كلب المادة وسلطانها وإلا فعلى تلك المجتمعات السلام.

إن لقاء الإسلام اليوم مع كل تقدم علمي في الغرب، وكل حضارة ورقي ليعني أنه هو الغاية وهو الهدف وهو المآل والملجأ، وعنده الحل والربط، إنه نظام متكامل صلاحيته لكل زمان ومكان... كل صيحات العقلاء في الأرض وكل حكمائهم تلتقي مع ما خطه الإسلام من نظم وقوانين.

العالم في مخاض وسيلد الإسلام. . . تلك هي الحقيقة الواضحة، الإسلام اليوم عاد يكتسح أوروبا وسائر بقاع الأرض، ويشعل فتيله على الرغم من ضعف المسلمين وضعف المبشرين بتعاليمه، وعلى كثرة الواقفين في وجهه. . .

نزيف الحروب لا يوقفها إلا الإسلام لأنه رسم حقوق الأفراد والأمم.

تدهور الاقتصاد، وغياب العدالة والمساواة لا يصلحه إلا الإسلام. .

عبثية المرأة وأثرها في ضياع المجتمعات، وانتشار الخمرة والمخدرات، وما تركته من آثار خطيرة لا يُخلِّص الإنسانية منها إلا الإسلام بعقيدته التي تنغرس في القلوب فتوقد شعلة الإيمان في النفس تمنحها الإرادة والعزيمة. .

الإيدز وأثره الخطير اليوم في إبادة وحصاد الأمم لا ينجّي منه البشرية إلا الإسلام بطهارته وعفته ونقاء أبنائه ومخططه في طريق الزواج الشرعي النظيف بعيداً عن كل العلاقات المشبوهة حفاظاً على المرأة وعلى كرامة البنين ومستقبل الأمة. .

أخطار الذرّة والأوزون والتلوث لا يبعد شبح الموت من جرّائها إلا الإسلام.

كرامة الإنسان المهدورة فوق سطح الأرض لا يعيدها إلا الإسلام فهل ستعي الإنسانية المعاني السامية لهذا الدين فتفتح صدرها وعقلها لاستيعاب مفاهيمه وقيمه وعندها فقط تستطيع تصحيح مسار حضارتها قبل فوات الأوان.

وإن لم يكن كذلك فإن التاريخ سجل ـ وما زال ـ بأن كل حضارة عالمية داخلها الوهن في القيم والأخلاق والعقيدة والدين فلا بد أنها صائرة إلى الزوال، وفي زوال الامبراطوريات العظمى أكبر شاهد. ولعلهم يعتبرون بغيرهم قبل أن تصير حضارتهم عبرة للآخرين ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: 37].

الخاتمة

حاولت في هذا الكتاب بقدر جهدي وطاقتي وبما منّ الله به عليّ أن أبدي وجهاً للإسلام جديداً وهو الوجه الذي يتماشى مع كل معطيات الحضارة والعلوم الحديثة. وهو جانب قلما قرأت في ميدانه إلا بحوثاً قليلة لبعض أكابر كتابنا، وكأن مفكرينا ـ سامحهم الله ـ ينفرون من محاولة الربط بين مناحي الحضارة العالمية والإسلام، مع العلم أن كثيراً من جوانب تلك الحضارة يكاد يكون ديناً، فالعلم عندما يلتزم العلماء فيه الأمانة العلمية فيصلون إلى نتائج باهرة كثيراً ما تلتقي تلك النتائج بثمرات الدين، فليس بين ديننا والعلم هذه الهوّة التي تفصل بينه وبين الكنيسة.

حاولت أن أثبت في البداية أن العقيدة الإسلامية القائمة على التوحيد ليست عقيدة العرب أو العجم، ولا

عقيدة شخص أو زمن أو أمة، وإنما هي عقيدة عالمية يلتقي عندها فكر العصر الحديث ، وتتلاقى معها عقول المخلصين الذي توصلوا إلى معرفة الله من بين أبحاثهم ومخابرهم ودراساتهم الميدانية.

ثم أبديت صفحة الإسلام الناصعة المشرقة بالعلم وما بناه الأجداد من حضارة رائدة يوم كان الغرب يغطّ في نوم عميق، والأمانة العلمية التي حملها هؤلاء العلماء وكيف أوصلوا تلك الرسالة إلى كل من عرفوه أو اتصل بهم، وكيف باركوا شعوب البلدان المفتوحة بما توصلوا إليه من علوم ومبادئ وقيم ثم قارنت بينها وبين حضارة الغرب بذكر مزالق تلك الحضارة والتي زلّت بها القدم بمبادئ وضعية أهدرت كرامة الإنسان وأدت به إلى العبث والضياع.

أما بقية الفصول من الفصل الخامس إلى النهاية فقد عالجت فيها بعض قضايا متنوعة من قضايا العصر على ضوء الإسلام، منها قضايا سياسية وفكرية وإنسانية وربطت بين كل قضية وبين دور الدين بحيث يتجلى وجه الدين في أسمى إشراقته.

وما تزال أمامي فرصة كبيرة بإذن الله لمتابعة تلك

القضايا العالمية وترجمتها بحسب مفهوم الدين لتثبت أن الدين ليس بعيداً عن الحياة ولا معتزلاً لها بل هو قلب المعركة ومع تطور الإنسان علماً وحكمة وأخلاقاً. .

فالدين لا ينكر التطور ولكنه ينكر أن يكون وسيلة لغاية دنيئة هي إفساد المجتمعات الإنسانية ونشر الإلحاد، والدين لا يعادي الشيوعية إلا لأنها اتخذت موقفاً من بداية نشوئها ضد التوحيد عقيدة الفطرة الإنسانية وسنت مبادئ أدت بالإنسان إلى مأزق حرج نراه الآن يريق ماء وجهه محاولاً التراجع عنه.

والدين لا يرضى للمجتمع الإنساني أن تقتله الخمرة والمخدرات ويظل صامتاً دون أن يعلن احتجاجه على تلك المجتمعات ويرسم لها طريق الخلاص.

والدين الذي ضمن سعادة الإنسان على الأرض يأسف لهذا الإنسان وهو يحاول أن يفسد البيئة من حوله، من بين يديه ومن فوق رأسه فيلوث الماء والهواء ويخرق طبقة الأوزون فيهلك نفسه ومن معه. والدين أخيراً لا يرضى أن تتآمر القوى العظمى مع أذنابها لطرد شعب فلسطين أو أي شعب آخر من أرضه بقوة السلاح والظلم والغدر والعدوان.

الدين هدية الله إلى خلقه لتنظيم حياتهم وبرنامج اجتماعي وسياسي واقتصادي وحضاري يبني عزة الإنسان وكرامته على الأرض، فإذا رفضت الإنسانية ـ وما أظنها تفعل ـ هذا الدين فعلى نفسها جنت براقش[1] وإذا قصّر المسلمون في أداء هذا الواجب فإنما يفعلون ذلك لضعف إيمانهم، وإلا فالكل مأمورون بتبليغ دعوة الله في الأرض ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾.

فلنكن على وعي كامل بديننا، فهماً وعملاً وتطبيقاً وإخلاصاً وتبليغاً، ونربط بينه وبين كل تيارات الحضارة لنرى ما يلتقي منها مع الإسلام وما يتعارض معه، فما كان الدين يوماً مختلفاً عن ركب الحضارة بل كان قائدها وربانها عبر التاريخ. . .

ولنحمل هذه الأمانة بكل شرف وإخلاص فهي عزّنا وكرامتنا، وكرامة لبني الإنسان على وجه الأرض ولنكن شهداء على الأمم كما أراد الله أن نكون عند حسن ظن الله بنا فلا نتقاعس عن أداء الأمانة وتبليغ الرسالة. إن المجتمع

---

(1) مثل يضرب لمن يسيء إلى نفسه بيده.

الإنساني اليوم جدُّ متعطِّش إلى منهج الإسلام فما أن يطّلعوا على بعض أسراره ومناحيه حتى يسلموا ويصبحوا دعاة إلى الله. المجتمع الإنساني ينتظر المخلص من كوابيس الحضارة وضياع الإنسان، فلنكن نحن المخلصين وحملة مشعل الحرية والنور والحياة لكل بني الإنسان، وما أروعها كلمة تهدي بها الحائر وترشد بها الضال وتفتح بها على الحقّ عيوناً رمداً طالما عميت عن جادة الحق.. فلنكن من ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾ [الأحزاب: 39]

الفهرس



ISBN 978-9959-28-251-4
9 789959 282514



WORLD ISLAMIC CALL SOCIETY
Association Mondiale de L'Appel Islamique